الناسك

ليف تولستوي

ترجمة

موسى وهبه مينا



ليف تولستوى

الناسك

ترجمة

موسى وهبه مينا

التربية الكنسية
بكنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
خمارويه - شبرا - مصر

الغلاف واللوحات الداخلية

من تصميم

المهندس ماهر عزيز بدروس



في الأربعينات من القرن التاسع عشر جرت بعض الأحداث العجيبة في مدينة بترسبرج . كان هناك ضابط من سلاح الفرسان يتميز بمسحة من الجمال تنبأ له الجميع بالمستقبل الطيب وكانوا يتوقعون أن الامبراطور نقولا الأول لابد وأن يضمه الى فرقة الحرس الامبراطورى. الا أن هذا الضابط ترك الخدمة ، وفسخ خطوبته الى احدى الفتيات الجميلات التي كانت تنتمي الى أسرة عريقة ، وكانت من أكثر النساء صداقة للامبراطورة . والأكثر من هذا أنه تنازل عن أملاكه لشقيقته ثم اعتزل في أحد الأديرة وصار راهبا .

بدت هذه الحادثة في أعين الذين لا يعرفون الدوافع الباطنية لهذا التصرف أنها أمر غريب يصعب تفسيره أو قبوله ، ومع ذلك فقد بدا هذا التصرف في عيني الأمير استيفان كازاتسكى طبيعيا تماما لا يملك أن يتصرف تصرفا آخر سواه .

كان أبوه كولونيلا متقاعدا من رجال الحرس ، وافته المنية عندما بلغ استيفان الثانية عشر . وكانت وفاته صدمة

بالغة لأمه التى لم تحتمل بعد ذلك أن تفارق ابنها الا أنهـا اضطرت الى الحاقه بالكلية الحربية حسب رغبة أبيه .

أما الأرملة نفسها فقد انتقلت الى بترسبرج مع ابنتهـا بربارة لكي تكون على مقربة من ابنها حتى يتسنى له قضـاء أجازاته معهما .

وقد حاز الصبى تقدير أساتذته لمـا تميز به من مقدرة وكفاءة عاليتين ، فضلا عما عرف عنـه من تمسك بالـكرامة والاعتزاز بشخصيته . لقد احتـل المركز الأول بين رفاقه سواء فى دراسته ـ خصوصا فى الرياضيات التى كان مغرما بها ـ أو فى تداريبه العسكرية وركوب الخيل . كان فارع الطول ، جميل الطلعة يفيض بالحيوية والنشاط ولولا حـدة طباعه واندفاعه لصار طالبا مثالياً . كان صـدقه والتزامه بكلمته من الصفات الملحوظة ، كما عرف عنه استقامته وسلوكه السوى فلم ينحرف عن جادة الصواب فى كل تصرفاته ، ولم تستهوه الخمر . كان العيب الوحيد الذى غطى كل حسناته هو نوبات الغضب التى كانت تنتابه ، فيفقـد أثناءها كل سيطرة على عواطفه وتجعل منه وحشا قاسيا . لقد كاد فى احدى نوبات غضبه أن يلقى بأحـد زملائه من النافذة لأنه أثاره أثناء مناقشة حول مجموعته من أنواع المعادن . وفى مرة أخرى تملكته ثورة عنيفة ، فطوح بطبق من شرائح اللحم فى وجه أحد الضباط أثناء اشرافه على توزيع الطعام ، واندفع نحوه كالثور الهائج ويقال أنه اعتدى عليه فعلا . وكان السبب فى ذلك أن هذا الضابط لم يف بوعـد كان قد قطعـه على

نفسه ، ثم برر نفسه بأكذوبة فاضحة • لا شك أنه كان سيعاقب بتنزيل رتبته لولا أن مدير الكلية تكتم الموضوع بكامله وعزل المشرف على توزيع الطعام •

عندما بلغ الثامنة عشر كان قد انتهى من دراسته فى الكلية الحربية ، وعين ضابطا برتبة ملازم فى احدى فرق الحرس التى تضم أبناء النبلاء •

لقد استرعى استيفان كازاتسكى أنظار الامبراطور نيقولا بافلوفتش (نيقولا الأول) وهو مازال طالبا فى الكلية ، واستمر يجتذب انتباهه وهو فى فرقته ولهذا السبب تنبأ له الجميع بمنصب ياوران أو أركان حرب الامبراطور • وكان كازاتسكى نفسه يتوق الى تولى هذا المنصب ليس عن طموح فقط بل لأنه من أيام الدراسة كان شغوفا بخدمة مولاه ، شديد الولاء له • وكثيرا ما كان الامبراطور يزور الكلية الحربية ، وفى كل مرة كان كازاتسكى يتطلع باعجاب الى قامة الامبراطور العالية المنتصبة ، وصدره المتعالى فى بزته العسكرية بينما يمشى فى خطوته العسكرية المتسقة ، حليق الوجه ، مقصوص الشارب ، أنفه محدب كمنقار النسر • كان برهف سمعه لسماع صوت الامبراطور المدوى الرنان وهو يتبادل التحية العسكرية مع الطلاب • كانت تتملكه نشوة غامرة أحس بها فيما بعد عندما كان يلاقى المرأة التى أحبها • فى الواقع كان اعجابه القوى بالامبراطور أشد وأعنف •• كان يتمنى أن يبذل شيئا من أجله ـ كل شىء حتى نفسه ـ حتى يثبت للامبراطور ولاءه واخلاصه العميق • وقد أدرك

الامبراطور ـ بحسه المرهف وقوة ملاحظته ـ ما يثيره من حماس فى نفس الشاب ، فكان يتعمد الهاب هذه المشاعر فى نفوس الطلاب جميعا • كان الامبراطور يشاركهم ألعابهم ومرحهم ، حريصا على التفافهم حوله ، يعاملهم فى بعض الأحيان ببساطة كالأطفال ، وفى أحيان أخرى كصديق وبعد ذلك يرتد الى وقاره الملكى وسمته الرصين • ولكن بعد تلك المعركة التى شجرت بين كازاتسكى وضابط التعيين (الطعام) أمسك الامبراطور عن الحديث معه • وعندما كان كازاتسكى يقترب منه ، كان الامبراطور يزيحه بيده بعيداً عنه بطريقة لا تخلو من التصنع ، مشيحا عنه بوجه مقطب الجبين وهو يهز أصبعه فى اتجاه كازاتسكى منذرا متوعدا • ولكنه قبل أن يغادر المكان كان يوجه حديثه الى كازاتسكى : تذكر •• أنا عارف كل شىء • هناك أشياء لم أكن أحب أن أعرفها ولكنها تظل عالقة هنا •• ثم يشير الى صدره •

وعندما حل موعد تخريج الطلاب ، استقبلهم الامبراطور فى حفل رسمى ، ولم ترد أية اشارة ـ أثناء الحفل ـ الى غلطة كازاتسكى بل تحدث اليهم جميعا ـ كما جرت العادة ـ عن واجبهم المقدس فى خدمة الامبراطور وأرض الوطن بتفان واخلاص ، وأنه سيظل أبدا صديقهم الوفى ، واذا دعت الضرورة فيمكنهم الاتصال به مباشرة • كان لكلمات الامبراطور صداها العميق فى نفوس الضباط الشبان • واغرورقت عينا كازاتسكى بالدموع وهو يتذكر الماضى • وعندما حان دوره أقسم أن يخدم مليكه المحبوب ويفتديه بروحه •

وعندما تولى كازاتسكى منصبه ، انتقلت أمه مع شقيقته أولا الى موسكو ثم الى ضيعتهم فى الريف • وقد تنازل كازاتسكى عن نصف ثروته لشقيقته واحتفظ بما يكفيه لكى يحافظ على مظهره ومكانته فى تلك الفرقة التى التحق بها •

كانت جميع المظاهر توحى بأن كازاتسكى ضابط شاب لامع من ضباط الحرس يشق طريقه بنفسه نحو مستقبل أزهى وأبهى ، الا أن هناك فى أعماق نفسه كانت تجيش أشواق وتطلعات عميقة ومبهمة • منذ أيام الصبا كانت جهوده ومحاولاته تبدو متباينة ومتغايرة ، الا أن سمات معينة كانت تسود كل هذه التصرفات مهما بدا فيها من تناقض • كان يسعى جاهدا أن يؤدى كل شيء أو عمل يعهد اليه الى ذلك الحد من النجاح والاتقان الذى يبهر الأنظار ويغتصب المديح والاطراء ، سواء فى دراساته أو تداريبه العسكرية اذ كان يثابر على ممارستها واتقانها حتى يعترف له بالتفوق والامتياز ويصبح قدوة للآخرين • وكلما أتقن موضوعا وأجاده ، عكف على آخر حتى حصل على المركز الأول فى دراسته • وعلى سبيل المثال ، وهو مازال فى الكلية لاحظ على نفسه ضعفا وتعثرا فى الحوار بالفرنسية فانكب على دراسة الفرنسية وأتقنها حتى استطاع أن يتكلم بالفرنسية بنفس الطلاقة التى يتكلم بها اللغة الروسية • وعندما بلغ هذا الحد اتجه الى الشطرنج حتى صار لاعبا ممتازا •

وبالاضافة الى عمله الرئيسى ، خدمة الامبراطور والوطن، كان لابد له على الدوام أن يضع نصب عينيه هدفا ما • حتى

ولو كان هذا الهدف تافها ، فانه كان يكرس له نفسه تماما ويخصص كل جهده للعمل من أجله حتى يتحقق هذا الهدف وبمجرد أن يبلغ غايته ، يطفو على السطح هدف جديد يحل محل سابقه. هذه الرغبة الجارفة في اثبات وجوده وشخصيته وفي تحقيق هدف ما يتحقق من ورائه ابراز شخصيته ملأت كل حياته وسيطرت عليها . وما أن تولى وظيفته حتى عمل على الالمام الكامل بكل ما يتصل بهذه الخدمة وسرعان ماصار مضرب الأمثال بين زملائه الضباط ، الا أن عثرته القديمة وسرعة هياجه وعجزه عن ضبط نفسه فى سورات الغضب ظلت تلازمه . والآن وهو فى السلك العسكرى أدت به الى التردى فى تصرفات تغلق دونه باب الترقى والنجاح. وأحس فى نطاق الوسط الاجتماعى الذى ينتمى اليه ، وفى الأحاديث التى يتبادلها مع أهل هذه الطبقة أن هناك قصورا فى ثقافته العامة ، فاتجه الى الكتب يقرأ ويستوعب ، وينهل المعرفة من بطونها حتى تحقق له ما يريد . ولما كان تواقا الى احتلال مركز مرموق فى المجتمع الراقى ، أخذ يتدرب على الرقص حتى أتقنه وسرعان ما انفتحت أمامه أبواب الحفلات الراقصة على أعلى المستويات ، كما دعى الى اجتماعاتهم المسائية ... الا أن كل هذا لم يشبع طموح الشاب الذى يريد أن يكون الأول فى كل شيء ، فقد أحس فى وسط هذا المجتمع ، أنه مازال متخلفا عن الكثيرين ، وأنه لم يصل بعد الى المركز الأول .

والمجتمع الراقي يتكون من أربع جماعات ، الأولى من

الأغنياء المترددين على البلاط الامبراطورى ، والثانيـة وان كانت تقل فى الثروة الا أن أفرادها وتدوا ونشأوا فى دوائر البلاط ، والثالثة من الأغنياء الذين يتوددون لرجال البلاط والرابعة لا تتميز بالثراء ولا تنتمى الى البلاط ولكنها تتملق الطائفتين الأولى والثانية .

لم يكن كازاتسكى من الجماعة الأولى أو الثانية الا أنه كان يلقى ترحيبا من الطائفتين الأخيرتين . وعندما اندمج فى هذا المجتمع ، وضع فى نفسه أن يوطد علاقته باحدى سيدات المجتمع . وقد أخذته الدهشة عندما تحققت غايته بسرعة لم يكن يتوقعها . ومع ذلك فقد تكشفت أمامه حقيقة دامية ، أن الدوائر التى ينصب فيها شراك الود والتعارف لم تكن هى الطبقة الراقية . كما تبين له أن أرقى الطبقات التى فتحت له أبوابها بالترحاب انما كانت غريبة عنه ، وهـو لا ينتمى اليها . كانوا يعاملونه فى أدب بالغ ، ولكن سلوكهم العام كان ينم أن لهم جماعتهم الخاصة بهم ، وأنه ليس واحدا منها . وأراد كازاتسكى أن يصل الى العمق . وقد رأى - تحقيقا لرغبته - ضرورة الوصول الى رتبة أركان حرب الامبراطور وكان يتوقع الانعام عليه بهذه الترقية قريبا . ومن ناحيـة أخرى فقد رأى أن مما يحقق غايتـه أن يتزوج من احـدى سيدات ذلك الوسط الخاص . وقد استقر رأيه بالفعل على ذلك . ووقع اختياره على احـدى الفاتنات من نساء البلاط الامبراطورى لم تكن فقط من الطبقة التى يريد الانتماء اليها بل كان يطمع فى صـداقتها أرقى الطبقات وأكثرهم عراقة

ونبلا .. كانت هـذه هى الكونتيسـة كورنكوفا ... بدأ كازاتسكى يلاحقها بالملاطفة حتى يجتذب انتباهها ، ولم يكن مسلكه هذا من أجل مطامعه فى الترقى فقد كانت كورنكوفا على جانب كبير من السحر والجاذبية وسرعان ما أخذت بمجامع قلبه ، وتدله فى هواها. فى بداية الأمر كانت علاقاتها باردة ازاءه بشكل ملحوظ ولكنها تغيرت فجأة وصارت تعامله برقة بالغة وكانت والدتها تدعوه بحرارة لزيارتهم . وتقدم كازاتسكى يطلب يدها ، فقوبل طلبه بالارتياح والترحاب حتى تعجب للسهولة التى استطاع بها أن يحقق سعادته . ومع أنه لاحظ أن هناك أمورا غير عادية وغريبة فى مسلك الأم وابنتها ، الا أن الحب العنيف الذى يجيش به قلبه أعماه تماما فلم يدرك ما كانت المدينة كلها تعرفه ، وبالتحديد أن خطيبته كانت عشيقة الامبراطور نيقولا فى السنة السابقة .

وقبـل التاريخ المحدد للزواج بنحـو أسبوعين ، كان كازاتسكى فى القصر الريفى الذى كانت تقطنـه خطيبته . كان يوما قائظا من أيام شهر مايو . وبعد أن قضى كازاتسكى وقتا طيبا فى صحبة خطيبته يتجولان فى أنحاء المدينة ، جلسا على أحد المقاعد فى ظل خميلة وارفة الظلال . كان ثوبهـا الأبيض من الحرير يتسق تماما مع قوامها الجميل وكانت تبدو أمام عينيه تجسيدا للبراءة والحب ، حينما تميـل برأسـها قليلا ، وأحيانا تتطلع الى الرجل الوسيم الذى ينتصب أمامها فى قامته الفارعة بينما يتحدث اليها فى حنان بالغ فى شىء من التحفظ كأنه يخشى أن يخدش نقاوتها وجمالها الملائكى سواء بالكلمة أو بالحركة .

كان كازاتسكى على شاكلة أولئك الرجال الذين تميزت بهم أربعينات القرن التاسع عشر •• بينما كانوا يستبيحون لأنفسهم ارتكاب القبائح والرذائل دون أن يخالجهم شك أو يؤنبهم ضمير ، كانوا يشترطون الطهارة المثالية والنقاوة الملائكية فى نسائهم •• يظنون كل العذارى فى طبقتهم من أصحاب هذه العفة والطهارة ، ويعاملونهن على هذا الأساس• لا شك أن وجهة نظرهم لا تخلو من كثير من الزيف وكثير من السوء خصوصا فيما يتصل بما سمحوا به لأنفسهم من ألوان المتعة ، أما فيما يختص بالنساء فقد كان هذا الرأى التقليدى العتيق ذا قيمة وشأن • واذ أدركت الفتيات هذه النظرة المشبعة بالاعجاب والتقديس ، التمسن كل الوسائل وحاولن أن يكون سلوكهن ملائكيا يرقى بهن الى مصاف الآلهة •

على أية حال ، كان هذا هو رأى كازاتسكى ، وبهذه النظرة كان يحيط خطيبته الحبيبة • وفى هذا اليوم بالذات كان قلبه مشبوبا بمحبتها ، لا تخالطه نزوة أو رغبة من رغبات الجسد ، بل ــ على العكس من ذلك ــ كان يتطلع اليها بكل ما فى قلبه من أحاسيس الحب والاعجاب والتقديس كأنها أمل لا يمكن الوصول اليه •

نهض كازاتسكى الى ملء قامته المشدودة ، وقد وضع يديه على سيفه ، ثم تراقصت ابتسامة رقيقة على شفتيه وهو يقول : لقد عرفت الآن فقط ما هى السعادة التى يتمتع بها الرجل •• أنت هى هذه السعادة وأنت التى وهبتها لى يا عزيزتى •

مثل هذا الحديث العاطفى لم يكن مألوفا بينهما . واذ كان يشعر فى قرارة نفسه أنه أدنى منها بمراحل ، فقد اضطرب وهو يفصح عما تجيش به نفسه أمام مثل هذا الملاك .

ـ ينبغى أن أشكرك على هذه المعرفة ، لقد أدركت الآن انى أفضل مما كنت أظن .

ـ أما أنا فقد عرفت ذلك منذ زمن طويل . ومن أجل هذا أحببتك .

وهبت نسمة رطبة من الهواء العليل ، تردد صداها بين أوراق الشجر الخضراء ، وقفزت العصافير ترفرف بأجنحتها عن قرب .

وأخذ يدها بين يديه فقبلها ، وجالت الدموع فى مقلتيه ، وعرفت من ذلك تعبيرا عن شكره لأنها صرحت بحبها له . وفى صمت سار بضع خطوات ثم رجع اليها واقترب منها ثم جلس :

ـ أنت تعرفين ... ينبغى أن أصارحك ... عندما بدأت التقرب اليك ، لم يكن ذلك عفوا ، بل كنت أسعى الى الدخول فى الوسط الاجتماعى .. ولكن بعد ذلك ، بدا لى هذا الهدف تافها عقيما اذا ما قارنته بشخصك ، عندما عرفتك ... أرجو ألا يغضبك هذا الاعتراف ..

وأمسكت عن الجواب واكتفت بأن ربتت على يده برفق ، وكأنها تقصد :

ـ لا عليك ·· لم أغضب ·

ـ لقد قلت ··· ـ ثم تردد ، ووقفت الكلمات فى حلقه، فقد بدا له أنها جرأة ما بعدها جرأة ـ لقد قلت أنك بدأت تشعرين بالحب نحوى · اعتقد ذلك ـ ولكن يوجـد هنـاك ما يقلقك ويحد من احساسك · ما هذا ؟

وسرحت فى خواطرها : صحيح ـ الآن والا فلا يمكن أبدا ·· لابد أن يعرف كل شىء بأية طريقة ·· ولكن الآن لا يمكن أن يفارقنى ·· أمـا اذا فعـل ·· انه لأمر مرعب وخطير · وحدجته بنظرة فاحصة ودودة طالعت بها قامتـه المديدة بما فيها من قوة ونبل · انها تحبه ، تحبه الآن أكثر مما كانت تحب القيصر · وبغض النظر عن بهاء الملك فهى لن تتردد الآن لحظة فى تفضـيل كازاتسكى على الامبراطور نفسه ·

ـ اسمع ! لا يمكننى أن أخدعك · لابد أن أصارحك · انك تسألنى عن سبب قلقى ·· لقد كنت أحب انسانا آخر من قبل ·

ثم وضعت يدها على يده ، كأنها ترجوه ضـارعة ، بينما أخلد هو الى الصمت ·

ـ أتريد أن تعرف من هو ؟ انه ··· الامبراطور ·

ـ كلنا نحبه ·· يمكننى أن أتصورك كتلميذة فى المعهد·

ـ لا لا ·· كان ذلك بعد أيام الدراسة · كنت مأخوذة به ، ولكن كل شىء قد انتهى ·· يجب أن أقول لك ···

ـ حسنا . وماذا فى هذا ؟

ـ لا لم يكن مجرد ...

ثم غطت وجهها بيديها .

ـ ماذا ؟ هل استسلمت له ؟

ولم تنطق بكلمة ، وعاد هو يقول :

ـ عشيقته ؟

ولم تحر جوابا .

وقفز من مكانه واقفا، وتسمرت قدماه أمامها ، وارتعش فكاه ، واكتسى وجهه بمسحة من شحوب الموت . وقفزت الى ذهنه الخواطر ، كيف قابله الامبراطور وهنأه على خطوبته تهنئة رقيقة .

ـ يا الهى ... ما هذا الذى فعلت ؟

واستدار على عقبيه ، واتجه فورا الى البيت . وهناك تلاقى مع أمها التى بادرته قائلة :

ـ ماذا حدث ؟ يا أمير ...

وتوقفت عن الكلام عندما ألقت نظرها على وجهه . لقد اندفعت الدماء فجأة الى رأسه :

ـ أنت تعرفين كل شيء ... وتستغليننى سياجا لهما! لو لم تكونى امرأة !...

صاح غاضبا وهو يرفع قبضته فى الهواء • وأشاح عنها بوجهه ، وخرج كالقذيفة لا يلوى على شىء •

لو كان هذا العشيق شخصا آخر لقضى عليه •• أما وهو الامبراطور المحبوب ••!

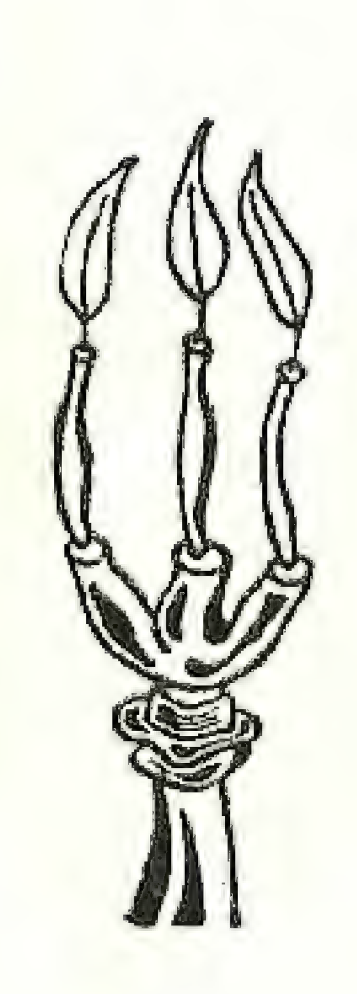
فى اليوم التالى طلب اجازة كما طلب فى نفس الوقت اعفاءه من وظيفته • ولكى لا يقابل أحدا ، أذاع أنه مريض، واعتزل فى الريف •

قضى شهور الصيف فى القرية يرتب أموره ، وعندما انتهى الصيف لم يرجع الى بترسبرج بل دخل الدير وانتظم فى سلك الرهبنة •

وقد كتبت اليه أمه تطلب اليه أن ينثنى عن هذا العزم، ولكنه أجابها بأنه شعر بدعوة الله التى تفوق جميع الاعتبارات • ولكن أخته وحدها التى كانت تشابهه فى الطموح والكبرياء استطاعت أن تفهمه •

لقد أدركت أنه صار راهبا حتى يستطيع أن يسمو على كل الذين كانوا يظنون أنهم أرفع منه مقاما • وكانت على صواب فيما أدركت • واذ صار راهبا ، احتقر كل ما كان يبدو هاما عند الآخرين كان يهتم بهذه الأمور عندما كان ضابطا أما الآن فقد ارتفع فوق هذه الأمور وأصبح ينظر باحتقار الى أشواقه الأولى •• ولكن لم يكن هذا فقط ـ كما كانت تعتقد أخته بربارة ـ هـو المدة الذى يسيطر عـلى

حياته . لقد كان فى أعماقه شيء آخر - احساس دينى صادق لم تعرفه بربارة . كان هـذا الاحساس يرتبط بأحاسيس الكبرياء والرغبة فى التفوق وصار حافزا موجها لحياته . كان اكتشافه لحقيقـة خطيبته التى كان يرى فيهـا الطهر الملائكى ، واحساسه بالاهانة التى لحقت به من القوة بحيث أدت به الى اليأس . واليأس قاده الى - الى ماذا ؟ الى الله ، الى ايمان الطفل الساذج ، الذى سكن فى داخله ولم يتحطم كما تحطمت آماله ومطامعه فى هذا العالم .





دخل كازاتسكى الدير فى عيد شفاعة العذراء المباركة وكان رئيس الدير الذى استقبله من سلالة أسرة عريقة ، كاتب واسع الثقافة من جماعة المتوحدين تنتمى الى سلسلة من الآباء فى ولاشيا • وكان من عادة هذه الجماعة أن يختار الراهب لنفسه مرشدا روحيا ومعلما من شيوخ الرهبان ، يخضع له فى طاعة مطلقة • كان هذا الراهب تلميذا للأب امبروسيوس المتوحـد ، الذى كان بدوره تلميـــذا للأب مكاريوس •

وقدم كازاتسكى نفسه لهذا الأب طالبا منه أن يكون له معلما ومرشدا روحيا • وراقت له حياة الرهبنة بما أشاعته فى نفسه من شـعور بالتسامى ، الا أن نزعـاته التى كان يمارسها فى العالم لم تفارقه • كان يحس بالرضا العميق عندما يؤدى واجباته الى أقصى درجات الاتقان والكمال سواء فى صورتها الخارجية أم كمالها الداخلى • وكما كان دأبه فى السلاح لا يكتفى أن يكون بلا لوم بل يتفوق فى أداء واجبه الى أعلى درجات الكفاءة ، هكذا أيضا كان حريصا فى رهبنته أن يكون كاملا فكان عمالا مجتهدا ، لا يفرط فى طعام أو

شراب بل لعله يميل الى الاقلال من الطعام والشراب ، لم يتخل عن خضوعه وطاعته فضلا عن وداعته وبشاشته كما كان نقيا فى أفعاله ، طاهرا فى أفكاره . وكانت الطاعة بصفة خاصة من العوامل التى جعلت حياته سهلة ميسورة . حتى حاجات الحياة فى الدير ، الذى كان على مقربة من العاصمة ، اذا لم ترق له أو كانت مثارا للتجارب له ، كان يقضى على هذه المشاعر بالطاعة « ليس من حقى أن أناقش ، واجبى أن أؤدى ما يطلب منى من أعمال ، سواء كان ذلك فى الوقوف بجوار عظام القديسين ، أو الاشتراك مع الشمامسة فى الألحان ، أو عمل حسابات دار الضيافة بالدير ... » كل الشكوك التى قد تثور كان يكتمها بالطاعة للرئيس . ولولا ذلك ، لتبرم ضيقا من طول الخدمات الكنسية وصلواتها الرتيبة ، ومن الضوضاء التى يثيرها الزوار ، ومن الصفات الرديئة التى لا تعجبه فى بعض الرهبان الآخرين . وقد احتمل كل هذا بفرح وأكثر من ذلك فقد وجد فيها عزاء وتدعيما لحياته الروحية « لست أدرى لماذا يجب أن نستمع الى نفس الصلوات عدة مرات فى اليوم الواحد ، ولكننى أعلم أيضا أنه أمر ضرورى ، وهام ولهذا فأنا أجد لذة فى ذلك . لقد علمه مرشده الروحى أنه كما أن الطعام المادى ضرورى للحياة بالجسد ، هكذا أيضا لابد من الطعام الروحى — صلوات الكنيسة — لنمو الحياة الروحية . صدق هذا وآمن به ، ومع أن صلوات الكنيسة كانت تستلزم منه اليقظة المبكرة ، كما كانت صعبة عليه ، الا أنها كانت تملأ حياته بالهدوء والرضى . لقد كان ذلك ثمرة وعيه اليقظ

بضعفه ووضاعته ، وثقته بأن كل ما يفعله طاعة لمرشده لابد وان يكون عملا سليما ٠

لم يقتصر اهتمامه على اخضاع ارادته أكثر فأكثر ، بل كان يتوق الى اقتناء جميع الفضائل المسيحية التى كان يظن فى بادىء الأمر أن الوصول اليها من السهولة بمكان ٠ لقد أعطى شقيقته كل ضيعته ولم يراوده الندم على ذلك ، فليس له أى مطالب شخصية ٠ والتواضع والخضوع حتى لمن هم دونه لم يكن أمرا سهلا فقط بالنسبة له ، بل كان باعثا على الاحساس بالسرور أيضا ٠ حتى الغلبة على خطايا الجسد ـ الطمع والشهوة ـ استطاع الوصول اليها بسهولة ٠ لقد حذره مرشده الروحى من الخطية الثانية تحذيرا خاصا ٠ ولكن كازاتسكى كان يحس بأنه ليس أسيرا لها ، بل تحرر من قيودها ولاشك أن هذا كان باعثا لفرحه ورضاه ٠

ولكن شيئا واحدا كان يعذبه ويقض مضجعه ٠٠٠ كلما طاف بذهنه شىء يذكره بخطيبته ، وليس فقط ذكراها بل كذلك ما كان عساه يمكن أن يكون لو تم زواجه ٠٠٠ أمر رهيب !! وبلا أرادة كان تداعى الخواطر يضع أمام ذهنه احدى السيدات التى كان لها حظوة لدى الامبراطور ثم تزوجت وصارت زوجة وأما جديرة بالاعجاب ٠ كان زوجها يحتل مركزا رفيعا ، يتمتع بنفوذ واسع وشرف عريض ، وزوجة صالحة تقية ٠

كانت هذه الخواطر تترى عليه فى ساعات خلواته ، ولكنه كان ينفض عنه ثقل هذه الأفكار عندما يتذكر أن

التجربة قد عبرت وانتهت • ولكن كانت تمر به أحيانا أوقات يرى فيها كل ما يحيط به وكل ما تقوم عليه حياته يبدو مظلما كئيبا •• اللحظات التى تساوره فيها الشكوك حول الهدف من حياته ، ويعجز فيها عن تحديد الثقة فيه ، ويخيم على نفسه شعور مقبض بالندم على هذا التغيير الذى انتهجه فى حياته •

وكان الشيء الوحيد الذى ينقذه من هذه الحالة العقلية ومن هذا الضيق النفسى هو الطاعة والعمل ومداومة الصلاة طوال اليوم • فكان يمارس طقوس الصلاة على اختلافها ، كان يسجد وينحنى ، بل كان يصلى أحيانا فيطيل أكثر من المعتاد ، ولكنها للأسف كانت هذه الصلوات مجرد خدمة شفاه أما روحه فلم يكن لها نصيب فيها • ربما استمرت هذه الحالة يوما كاملا وقد تطول أحيانا الى يومين ولكنها فى نهاية المطاف كانت تختفى من تلقاء ذاتها ••• ومع ذلك فقد كانت هذه الأيام ثقيلة ومزعجة • كان كازاتسكى يشعر أنه لم يعد ملكا لنفسه ، ولا بين يدى الله ، ولكنه كان يحس أن هناك شيئا آخر يسيطر عليه • وكل ما كان يستطيع أن يفعله هو طاعة مرشده مع ضبط النفس والكف عن العمل• ثم الانتظار • وعلى وجه العموم كان طوال هذا الوقت لايحيا بمشيئته الخاصة ، بل بتدبير مرشده الروحى ، وفى هذه الطاعة كان يجد راحة وهدوءا بصفة خاصة •

وهكذا أمضى كازاتسكى سبع سنين فى هذا الدير • وفى نهاية السنة الثالثة تلقى نعمة الكهنوت وسيم قسا

باسم الأب سرجيوس ، وقد كانت الخدمة حدثا هاما فى حياته الداخلية ، قبل ذلك كان يشعر بعزاء عظيم ورفعة روحيـة عندما يتقدم للتناول من السر المقدس ، أما الآن وقد أخـذ السلطان فقد كان مجرد الاستعداد للقيام بالخدمة يملأ نفسه بنشوة عميقة • ولكن مع مرور الزمن خفت حدة هذا الانفعال العاطفى تدريجيا حتى أنه فى احدى المرات وهو يؤدى خدمة القداس الالهى ، وهو واقع تحت تأثير حالة نفسية سيئة ، شعر أن ذلك الأثر الروحى الذى كان يحس به فى صلوات القداس لن يدوم وقد ضعف فعلا هذا الشعور الروحى العميق ولم تبق فيه سوى عادة ممارسة هذه الصلوات الطقسية •

وهكذا عندما أقبلت السنة السابعة من حياته فى الدير كان الأب سرجيوس قـد بلغ منه الاعيـاء درجة عظيمـة • لقد تعلم كل ما كان يمكنه أن يتعلمه ، ووصل الى كل ما كان يمكنه أن يصل اليه • لم يكن هناك ما يمكنه أن يعمله أكثر مما فعل ، ولكن تراخيه وتنـاومه الروحى كان يتزايد يوما بعد آخر • وفى هذه الأثناء سمع بوفاة أمه كما سمع بزواج شقيقته بربارة ، وقد تقبل كلا الخبرين دون أن يعيرهما أى اهتمام • كل اهتمامه وكل انتباهه كانا مركزين على حياته الداخلية •

وفى السنة الرابعة من رسامته كاهنا ، أظهر الأسقف اهتماما خاصا بأمره كما أبدى نحوه عطفا خاصا • وفى هذه الأثناء استدعاه المرشد الروحى وأوصاه ألا يرفض الخدمة اذا دعى الى منصب أعلى • **وهكذا** أحس بذلك الطموح ، الذى

كان لا يرضيه فى غيره من الرهبان وكان ينتقده ‎.. **ولكنه جاش فى صدره** أحيانا ‎. كان مرشـحا لرياسة أحد الأديرة القريبة من العاصـمة ‎. أراد أن يرفض ولكن مرشـده أمره أن يقبل فأطاع واستأذن من مرشده وانتقل الى ذلك الدير الجديد ‎.

وقد كان انتقال سرجيوس الى الدير الكبير حدثا له خطورته فى حياته ، فهناك واجه الكثير من التجارب والاغراءات وقد جمع أطراف شجاعته وارادته لكى يواجهها ويقاومها ‎.

فى الدير السابق لم تكن النســاء مصدرا للتجارب ، أما هنا فقد حاربته التجربة بقوة وعنف ، واتضحت معــالم التجربة ‎. فقد كانت هنـاك احدى الســيدات التى عرفت بالتصرفات الطائشــة الحمقـاء ـ كانت تسعى اليه وتخطب وده . لقد تحدثت اليه ، وطلبت اليه أن يشرفها بزيارته ولكنه اعتذر عن ذلك بحزم ‎. ولكنه كان يضيق بنفسه وهو يشعر بتلك الرغبة العنيفة التى تملأ قلبه ‎. لقد اشتد به الضيق حتى كتب عن مشكلته الى ابيه الروحى ‎. وفضـلا عن ذلك فقد أراد أن يكبح جماح شهواته فتحدث فى هذا الأمر الى أحد المبتدئين ، واســتطاع التغلب على احســاسه بالخجـل واعترف له بضـعفه وطلب اليه أن يراقبه بدقة وألا يسمح له بالذهاب هنا أو هناك الا اذا كانت وجهته الى خدمة كنسية أو لاتمام واجباته ‎.

ولم يكن هذا هو كل ما يضايقه ، بل كان هناك فخ عميق يكمن فى مشاعره ازاء رئيس الدير الجديد ، لم يكن يحبه

بل كان هناك شعور عارم من النفور منه والتمرد عليه ..
فقد عرف فيه رجلا ماديا يهتم بالمظاهر العالميه • يسعى
بكل ما عنده من حيلة ودهاء لكى يشق لنفسه طريقا فى
المناصب الكنسية • لقد حاول سرجيوس أن يسيطر على
عواطفه العنيفة ، ولكنه لم يستطيع أن يكبح نفسه • لا شك
أنه كان خاضعا مطيعا لأوامر الرئيس ولكنه فى أعماق نفسه
لم يكف عن ادانته حتى أنه فى السنة الثانية من اقامته بالدير
عيل صبره ازاء مشاعره العنيفة فانفجر بركان غضبه •

فى عشية عيد شفاعة العذراء المباركة ، كان هناك عدد
كبير من الزوار يشترك فى الصلوات الطقسية بالكنيسة
الضخمة فى الدير ، وكان رئيس الدير يقود الصلوات بنفسه
كان الأب سرجيوس واقفا فى مكانه المألوف يصلى بحرارة ،
كان فى ذلك الجهاد الروحى الذى يغمره أثناء الخدمة المقدسة
خصوصا اذا لم يكن هو الكاهن الخادم فى الصلاة • كان هذا
الصراع يحتد ويشتد فى أعماقه اذا كانت الكنيسة حافلة
بالناس ، خصوصا الطبقة الراقية ، وبالذات الجنس الناعم•
حاول ألا يراهم ، وحول نظره عنهم حتى لا يلاحظ شيئا مما
يجرى : ذلك الجندى الذى أخذ ينظم ويرتب ، ويدفع البسطاء
والفقراء جانبا ؛ تشير السيدات الواحدة للأخرى الى هذا
الراهب أو ذاك ـ كانت بعض هذه الأيدى الناعمة تشير اليه
كما كانت تشير الى راهب آخر يمتاز بملامحه الجميلة • حاول
أن يحفظ ذهنه من الشرود ، وأن يثبت بصره فى ضوء الشموع
التى تحف بالمذبح المقدس ، أو فى الأيقونات أو فى الآباء

الكهنة والشمامسة وهم يؤدون الخدمة المقدسة . جاهد في أعماقه حتى لا يسمع أى شىء سوى الصلوات وألحانها والقراءات ، وألا يشعر بشىء بل أراد أن يفنى ذاته فى الاحساس بتحقيق الواجب ـ ذلك الاحساس الذى لم يفارقه اطلاقا وهو يسمع أو يتمتم مقدما الصلوات التى درج على سماعها دائما .

هكذا وقف ، يرشم نفسه بعلامة الصليب أو يطأطىء و ينطرح ساجدا كلما اقتضى الأمر ذلك .. وطوال الوقت يصارع مع نفسه ، تارة يستسلم للادانة واحصاء الأخطاء ، وتارة يتوه فى تداعى الخواطر وراء الاثارات المتعمدة المقصودة. وهناك الأب نيقوديموس المسئول عن حفظ الكتب المقدسة ، وأدوات المذبح وملابس الخدمة .. لقد كان حجر عثرة لسرجيوس الذى كان لا يستطيع أن يكتم ادانته وتوبيخه له لأن نيقوديموس دأب على تملق رئيس الدير ومداهنته ... لقد اقترب الأب نيقوديموس نحو الأب سرجيوس وانحنى أمامه سائلا اياه أن يتقدم للوقوف خلف أبواب الهيكل ، فأصلح الأب سرجيوس من هندامه ، ولبس قلنسوته ثم شق طريقه فى وسط الجموع وحواسه مرهفة لكل ما يدور حوله .

وترامت الى أذنيه كلمات احدى السيدات وهى تقول لجارتها : ليزا . انظرى الى اليمين . انه هو .

ـ أين ؟ ليس على قدر كبير من الجمال .

لقد أدرك أن حديث المرأتين كان يدور حوله . لقد تبين

كلماتهما بوضوح ، ولكنه ردد بسرعة : ولا تدخلنا فى تجربة. لقد اعتاد اللجوء الى هذه الكلمات كلما هاجمته التجارب ، وأحنى رأسه وأغضى بصره ثم عبر بجوار المنجلية ثم دخل الهيكل من الباب البحرى متفادى ـ بذلك ـ الكهنة فى ملابسهم السوداء وكانوا فى تلك اللحظة يدخلون عبر حجاب الهيكل. وما أن دخل سرجيوس الى الهيكل حتى سجد وهو يرشم نفسه بعلامة الصليب كالمعتاد ، وأدى المطانيات أمام الأيقونات ثم نهض قائماً ورفع رأسه ، ودون أن يلتفت يمنة أو يسره ، استطاع بنظرة جانبية أن يرى رئيس الدير واقفا بجوار شخص آخر تبدو عليه علامات الرفعة . كان الرئيس واقفا بجوار الجدار وقد ارتدى ملابس الخدمة وقد أخرج يديه السمينتين من تحت البرنس ، وعقد ذراعيه على جسمه الضخم وكرشه البارز ، ويعبث من حين الى الآخر بالمنطقة المشدودة حول وسطه . وتتراقص البسمات على شفتيه وهو يتحدث الى هذا الرجل فى سترته العسكرية التى تدل على أنه من قادة الحرس الامبراطورى . ان عينى سرجيوس المدربة الخبيرة استطاعت أن تلمح بسرعة ما ازدان به كتف الرجل من علامات الرتب العسكرية . لقد كان هذا الضابط هو نفس القائد الذى كان يعمل سرجيوس تحت لوائه ، ولا شك أنه الآن يحتل مركزا رفيعا . ولم يفت الأب سرجيوس أن يلاحظ ادراك رئيس الدير لهذه الحقيقة ولهذا فلا يمكن أن تفوته مثل هذه الفرصة . كان وجهه الأحمر المكتنز ورأسه الأصلع يشرقان بالرضى والسرور . ولكن هذا أثار اشمئزاز الأب سرجيوس ، والتهب غضبه بالأكثر عندما سمع أن رئيس الدير

لم يرسل فى طلبه الا لكى يشبع فضول الجنرال الذى أراد أن يرى رجلا كان يخدم معه من قبل ٠٠ هكذا قال بنفسه ٠

ومد الجنرال يده ليصافح سرجيوس وهو يقول : « انى فى غاية الغبطة أن أراك فى هذا الزى الملائكى ٠ وأرجو ألا تكون قد نسيت رفيقا قديما لك » ٠ كان الموقف مثيرا للغاية ؛ وجه رئيس الدير الباسم فى وسط هذه الهالة من شعره الرمادى ، كلمات الجنرال ووجهه الحليق تشيع فيها ابتسامة الرضى والاعتزاز ، ورائحة النبيذ تنطلق مع أنفاسه، ألفاظه تختلط برائحة التبغ ٠٠ كل هذا أثار كوامن الغضب والسخط فى نفس الأب سرجيوس ٠ ولكنه انحنى ثانية أمام رئيس الدير ثم قال : « لقد تنازل قداستكم فأرسل فى طلبى » ٠

ثم توقف وملامح وجهه وعيناه تدل على السؤال الذى أراده ٠٠٠ لماذا ؟

وأجاب الرئيس : نعم ٠٠ لكى تقابل الجنرال ٠

وعلت وجه الأب سرجيوس سحابة من الشحوب ، وارتعشت شفتاه وهو يجيب : قداستكم يعلم أنى قد تركت العالم من أجل خلاص نفسى ، ولكى أنجو بنفسى من التجارب. لماذا تعرضنى لها أثناء الصلاة وفى بيعة الله ؟

ـ يمكنك أن تذهب ٠٠ اذهب ٠ قالها رئيس الدير ، وقد لمعت عيناه بالغضب ، وتجهمت ملامحه ٠



كانت كلماته تفصح عن التوبة والندم

ـ فى اليوم التالى تقدم الأب سرجيوس يطلب الصفح والمغفرة من رئيس الدير ومن الاخوة بسبب كبريائه • الا أنه فى نفس الوقت ، قضى ليلة فى الصلاة قرر بعدها أن يغادر الدير وكتب الى مرشده الروحى يطلب منه السماح له بالعودة اليه ثانية • لقد وصف له ـ فى رسالته ـ ضـعفه وعجزه عن مقاومة التجارب بدون معونته وارشـاده ، كما اعترف بخطية الكبرياء التى سـقط فيها • كانت كلماته تفصـح عن التوبة والندم • وسرعان ما ورد اليه خطاب من مرشده أعرب فيه لسرجيوس أن كبـريائه هى السبب فى كل ما حدث •• لقد أكد له أن نوبات الغضب التى تنتابه ترجع الى رفضه كل الكرامات والرتب الكهنوتية التى عرضت عليه، وأن ما يمارسـه من أساليب وضع الذات ورفض الـكرامة لا يمارسه محبة فى الله بل استجابة لكبريائه « هوذا الآن ، ألم أنجح نجاحا رائعا لأنى لا أطلب شيئا لنفسى » ••• هذا هو السبب الذى جعلـه لا يحتمـل تصرف رئيس الدير ولا يطيقه . « لقد جحدت كل شىء من أجل مجد الله وها هم يستعرضوننى كأنى حيـوان مفترس » لو كنت قد جحدت الغرور والاعتزاز بالذات من أجل الله لاستطعت أن تحتمل • أن روح الكبرياء العالمى لم يمت فيك حتى الآن • لقد فكرت كثيرا فى ظروفك ـ يا بنى سرجيوس ـ وصليت كذلك وهاك ما أعطانى الرب لكى أقوله لك • فى برية تامبوف ، كان يعيش القديس هيلارى المتوحد •• وقد أنتهى من جهاده على الأرض وانتقـل • لقد قضى ثمانية عشر عاما فى تلك البـرية • ان رئيس تامبوف يبحث عن أحد الأخوة الذى يشغل مكان

ذلك الناسك ·· وخطابك يصل فى نفس الوقت · اذهب الى الأب بيشوى فى دير تامبوف ، وسأكتب كذلك اليه حتى يسمح لك بالسكنى فى قلاية الأب هيلارى · ليس معنى ذلك انك ستحتل مكانة هذا القديس ، ولكنك فى حاجة الى الوحدة حتى تقمع كبرياءك · الرب يبارك حياتك » ·

وهناك كان الأب بيشوى ، الذى كان قبل الرهبنة رجل أعمال ناجح ، وقد استقبل الأب سرجيوس فى بساطة وهدوء، وأعطاه قلاية الأب هيلارى للسكنى ، وفى البداية خصص له أحد الأخوة العلمانيين لخدمته ولكنه فيما بعد تركه وحيدا فى وحدته استجابة لرغبة سرجيوس نفسه · كانت قلايته عبارة عن مغارة مزدوجة ، محفورة فى جانب الجبل ، وفى هذه المغارة تم دفن المتنيح الأب هيلارى فى الجزء الخلفى منها حيث كان قبره ، بينما خصص الجزء الأول منها للنوم ، فيه حشية (مرتبة) من القش ، ومنضدة صغيرة ورف صفت عليه الكتب والأيقونات · خارج الباب الذى يغلق بواسطة خطاف ، يوجد رف آخر حيث يحضر أحد الرهبان مرة كل يوم ليضع عليه الطعام · وهكذا صار سرجيوس ناسكا متوحدا ·





في السنة السادسة من حياة الوحدة التي أخلد اليها سرجيوس ، وفي رفاع الصوم الكبير الذي اعتاد الناس أن يحتفلوا به احتفالا صاخبا ، التأمت جماعة مرحة من الأغنياء، رجال ونساء من المدينة المجاورة واستمتعوا بأطايب الطعام والنبيذ • كانت الجماعة تضم اثنين من المحامين ؛ وأحد أصحاب الأملاك الأثرياء ، وضابطا ثم أربعة سيدات : احداهن كانت زوجة الضابط ، والثانية زوجة الثرى ، والثالثة هي شقيقته وهي فتاة في ريعان الشباب ، والرابعة سيدة مطلقة ، جميلة وغنية ، ولكنها تتميز بالشذوذ في تصرفاتها ، وأهل المدينة كثيرا ما أصابتهم الدهشة لمغامراتها وهربها من حين الى آخر ، فصدمت مشاعرهم •

كان الجو رائعا ، والطريق تغطيه الثلوج الناعمة وكأنها جزء سوى منه • وانطلقت عرباتهم خارج المدينة حتى قطعت سبعة أميال ثم توقفوا • أخذوا يتشاورون فيما اذا كانوا يعودون أدراجهم أو يواصلوا رحلتهم الى مسافة أخرى •

وسألت المطلقة الجميلة ماكوفكينا : ولكن •• الى أين يؤدي هذا الطريق ؟

وأجاب أحد المحامين ، الذى كان يخطب ودها ، بقوله : الى تامبوف .. على بعد ثمانية أميال من هذا المكان .

ـ وبعد ذلك .. الى أين ؟

ـ ثم الى لسـ .. بعد الدير ؟

ـ ألا يعيش هناك الأب سرجيوس ؟

ـ هو كذلك .

ـ كازاتسكى ، الناسك الجميل ؟

ـ نعم .

ـ سـيداتى وسـادتى . دعونا نواصل المسير ، ونرى كازاتسكى ! يمكننا أن نتوقف عند تامبوف للراحة ثم نصيب شيئا من الطعام .

ـ ولكن معنى هذا ألا نعود الى بيوتنا الليلة .

ـ وماذا فى هذا .. يمكننا أن نبيت فى مغارة كازاتسكى

ـ حسنا . ولكن فى اندير توجد دار رائعة للضيافة ، لقد أقمت هناك عندما كنت أترافع فى قضية ماخين .

ـ لا .. سأقضى الليلة عند كازاتسكى .

ـ مستحيل .. لا يمكن مهما أوتيت من قدرة !

ـ مستحيل ؟ هل تراهن ؟

ـ لا مانع . لو نجحت فى قضـاء الليـل عنده ، فانى مستعد أن أراهن بما تريدين .

ـ حسب تقديرى ؟

ـ وكذلك يكون من جانبك أيضا !

ـ طبعا .. هيا بنا .

ودارت كؤوس الفودكا على السائقين ، وأخرجت الجماعة صندوقا مليئا بالفطائر والحلوى والتهموها • تدثرت النساء بفراء الكلاب البيضاء • وتناقش السائقون فيمن يستطيع أن يسبق الآخرين ، وكان أصغرهم جالسا على جانب مقعده متكئا الى جانبه ، واذا به يفرقع بسوطه ، ويطلق صوته يحث الخيول ، ويدق أجراس العربة وينطلق فى طريقه •

لم تتأرجح العربة اطلاقا ، وانطلق الحصان ينهب الطريق الثلجى الناعم • وفوق مثل هذا الطريق تبدو العربات وكأنها تنزلق الى الخلف بسرعة عجيبة ، ولكن السائق وقد اعتدل فى جلسته ، واتجه الى الأمام أخذ يهز اللجام فى يده ، ويحث الخيــل على المســير • كان الضــابط يجلس فى مقابل أحد المحامين وقد اشتركا فى حديث تافه مع جار ماكوفكينا • أما هى فقد جلست بلا حراك مســـتغرقة فى التفكير ، وقد جذبت أطراف الفراء حولها بشدة : « نفس الصورة تتكرر على الدوام ، شىء سخيف دائما • نفس الوجوه اللامعة الحمراء تفوح منها رائحة التبغ والنبيذ •• نفس الكلام ونفس الأفكار •• وعن نفس الاشياء دائما ! •• وهم دائما راضون عن ذلك ، لا يخامرهم أدنى شك فى أن الحياة يجب أن تجرى على هذا المنوال ، ولابد لهم أن يواصلوا حياتهم على نفس النهج حتى تنتهى حياتهم •• أما أنا فلا أطيق ذلك •• انها حياة مملة وثقيلة •• أريد شيئا •• عملا يقلب كل شىء رأسا على عقب • لماذا لا يحدث معنا مـا حدث لأولئك النـاس ـ فى ساراتوف على ما أظن ـ لقد استمروا فى رحلتهم حتى وصلوا

الى منطقة جليـدية قاحلة ·· وهناك تجمـدت أطرافهم ثم أجسادهم وماتوا بالفعل ! ماذا كان يفعل أصحابنا فى مثل هذا الموقف ؟ كيف يتصرفون ؟ ·· تصرفات حقيرة ودنيئة بلا شك ·· كل سوف يفكر فى نفسه فقط ، ولا يعمل الا من أجل نفسه فقط ·· حتى أنا ستكون أعمالى مشينة !! ولكنى ـ على الأقل ـ أتميز بالجمـــال ، كلهم يعرفون هذه الحقيقة ·· ولكن ماذا يكون الأمر بالنســـبة للناسك ؟ من المستحيل أنه تجرد من الأحساس بالجمال فلا يبالى به ! لا ! انه الشيء الوحيد الذى يهتم به الجميع ـ مثل ذلك الضابط فى الخريف الماضى ·· يا له من أحمق ! » ·

ثم صاحت بصوت عال : ايفان نيكو لايفتش ··

ـ أوامرك ··

ـ كم يبلغ من العمر ؟

ـ من ·· ؟

ـ كازاتسكى ·

ـ أعتقد أنه فوق الأربعين ·

ـ وهو يستقبل جميع الزائرين ؟

ـ نعم ، كل شخص ·· ولكن ليس دائما ·

ـ غط قدمى ·· لا ، ليس كذلك ·· يا لك من فظ !

لا ·· مرة أخرى · هكذا ! لا داعى للضغط عليهم !

وهكذا وصلوا الى الغابة حيث كانت المغارة ·

وقفزت ماكوفكينا من العربة ، وطلبت اليهم أن يتركوها حيث هى ، وأن يتابعوا هم رحلتهم · وعندما غابت العربة عن أنظارها ، أخذت تصـعد الممر الجبلى وقد تدثرت بمعطفها

من فراء الكلاب الأبيض .. ترجل المحامى وتوقف قليلا ، وهو يتابعها بنظراته ويرقبها .

كانت هذه هى السنة السادسة من عزلة الأب سرجيوس منذ أن انتهج أسلوب التوحد فى نسكه ورهبنته ، وقد بلغ التاسعة والأربعين . كانت حياته فى الوحدة شاقة وقاسية ، ليس بسبب الأصوام والصلوات التى اعتادها ، بل بسبب صراع داخلى لم يكن يتوقعه . كان هذا الصراع يدور حول أمرين : الشكوك وشهوة الجسد ، ويبدو أن هذين الخصمين كانا يتلازمان ويهاجمانه معا . كان يظن أنهما خصمان ولكنهما فى الحقيقة كانا خصما واحدا وشيئا واحدا . لايكاد الشك يفارق ، حتى تلتهب فيه الشهوة . ولما كان يعتقد أنهما عدوان مستقلان ، فقد كان يجاهد ضد كل منهما على حدة .

ورفع فكره ، وصرخ فى أعماقه : يا الهى ، يا الهى .. لماذا لا تنعم على بعطية الايمان ؟ .. هناك الشهوة ، بلا شك ، حتى القديسين كان عليهم أن يجاهدوا ضدها ـ القديس أنطونيوس وغيره من الآباء .. ولكنهم كان لهم ايمان ، أما أنا فتجوز على لحظات .. ساعات .. وأيام أفتقر فيها الى الايمان . لماذا يوجد هذا العالم ويبقى بكل ما فيه من مباهج ولذات ... لماذا يوجد ويبقى اذا كان خاطئا فاسدا يجب أن ننكره ونجحده ، لماذا ؟ لماذا خلقت يا رب هذا الاغراء وهذه التجارب ؟ التجارب ؟ لماذا لا تكون التجربة كامنة فى تلك الرغبة أن أهجر كل متع وأفراح العالم حتى يعد لى مكان

هناك ... حيث ... ربما لا يوجد شيء على الاطلاق » .
واذ يصل الى هذا الحد من التفكير ينزعج ويضطرب ويشعر باحتقار شديد لذاته . « مخلوق فاسد شرير ! أنت الذى تريد أن تصبح قديســـــا !! » ثم ينحى على نفسـه باللوم والتوبيخ ، ويهرع الى الصلاة . وما يكاد يبدأ فى الصلاة ، حتى ترتسم أمام مخيلته أحداث حياته عندما كان فى الدير ، فى مركز مرموق ، يزدان فى قلنسـوته وردائه ، ثم يهـــز رأسه : « لا .. ليس هذا صحيح انه خداع . قد أخدع الآخرين ولكنى لا أستطيع أن أغالط نفسى أو الله .. لست على شيء من التقوى أو الجلال .. بل شقى سخيف مسكين يستحق الرثاء ! » ثم يقلب ثنايا ردائه الأسـود ، ويبتسم عندما تقع عيناه على ساقيه النهزيلتين تسـبحان بين أطراف سرواله الواسع .

وأسرع يغطى رجليه ، وبدأ فى تلاوة صلواته فرشـم نفسه بعلامة الصليب وسجد الى الأرض . « هل يمكن أن يصبح فراشى هـذا هو صندوق دفنى ؟ » وكأنما الشيطان يهمس فى أذنيه : « الفراش الموحش هو نفسـه القبر .. مجهود باطل .. » ورأى بعينى خياله كتفى أرملة عاش معها ردحا من الزمن .. وهز رأسه ، وطرد الفكر الشرير سريعا واستأنف القراءة . وبعد تلاوة قانون الايمان ، أخذ الانجيل ، وفتح الكتاب ووقعت عيناه على فقرة كان يرددها وقد حفظها عن ظهر قلب : يا سيد ، أؤمن . أعن عدم ايمانى ـ واستراحت نفسـه اذا وضع جانبا كل الشكوك التى سـاورته . وكما

يستبدل المرء شيئا بآخر لا يعادله أو يساويه . هكذا أحل ايمانه بعناية مكان الشكوك ٠٠ ولو أن ايمانه هنا قام على أسس مهزوزة ٠٠ كل ما فعله أنه خطا خطوة الى الخلف خطاها فى حرص حتى لا يهز هذا الايمان أو يقلبه ٠٠ لقد لجم ذهنه المشتت المضطرب ، وأخذ يسترد هدوءه وسكونه النفسى وهو يردد صلاته ـ التى كثيرا ما كان يقولها فى أيام صباه ـ « يا رب اقبلنى اليك ، اقبلنى اليك » ٠ لم يقتصر شعوره على الهدوء فقط ، بل غمره شعور بالفرح والنشوة ٠ رشم نفسه بالصليب المقدس ثانية ، ثم رقد على فراشه الموضوع على المقعد الضيق الطويل ، وأسند رأسه على عباءته الصيفية ٠ واستسلم للنوم سريعا وفى نومه الخفيف ، خيل اليه أنه سمع دقات أجراس احدى العربات ٠ واذ كان بين اليقظة والمنام فقد ظن أن ذلك قد يكون حلما ، ولكنه سمع قرعا على الباب . هب جالسا وأصاخ بسمعه ، فلعل ما سمعه كان من خداع الحواس ، ولكنه سمع القرع ثانية ٠٠ ان الذى يقرع قريب من هنا ٠ بل انه يقرع على بابه هو ٠٠ ومع ذلك يوجد صوت امرأة ٠

« يا الهى ٠٠ هل يمكن أن يكون هذا صحيحا ، كما قرأت فى حياة القديسين ، أن الشيطان قد يتخذ شكل امرأة ؟ ٠٠ نعم ـ انه صوت امرأة ٠٠ صوت ناعم خفيض ٠٠ لطيف ٠٠ تبالك » ثم بصق وهو يطرد الشيطان « لا ٠٠ لقد كان هذا مجرد تصورات وخيال » وبذلك طمأن نفسه وهدأ من خواطره ، ومضى الى ركن المغارة ، حيث منجليته الخاصة ،

وسقط على ركبتيه وسجد بطريقته المألوفة التى تملأ نفسه بالعزاء والسلام . وتهدل شعره على جبينه ووجهه ، وقد ألصق رأسه ، التى تسلل الصلع الى مقدمتها ـ بالأرض الرطبة . وأخذ يردد المزمور الذى علمه اياه الأب بيمين العجوز حتى يطرد التجارب . ثم انتصب بسهولة ، بقامته النحيلة وجسده الهزيل على رجليه القويتين ، وحاول أن يستمر فى صلواته ولكن بدلا من ذلك أرهف أذنيه ، أراد أن يسمع المزيد . كان الهدوء يخيم على المكان . ومن ركن السقف أخذت قطرات الماء تسقط بانتظام فى البرميل الموضوع تحته . فى الخارج كان الضباب ، والرطوبة تذيب الثلوج التى تراكمت على الأرض . كان سكونا عميقا . ولكن فجأة سمع شيئا يحتك بالنافذة .. وصوتا يتكلم .. نفس الصوت الناعم .. الرقيق .. اللطيف الذى لا يمكن أن يكون سوى صوت امرأة .. جذابة .. كانت تقول :

ـ اسمح لى بالدخول ، من أجل المسيح .

شعر أن دمه يتدفق بعنف الى قلبه ، حيث توقف وتجمد. أخذ يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة .. « ليقم الله وليتبدد جميع أعدائه ، وليهرب من قدام وجهه كل مبغضى اسمه القدوس .. » .

ـ « ولكنى لست شيطانا » .. كان من الواضح أن هناك ابتسامة على الشفتين اللتين خرجت منهما هذه الكلمات .. « لست شيطانة ، بل مجرد امرأة خاطئة ضلت طريقها

بالفعل ، وليس تعبيرا مجازيا » وضحكت ٠٠ « لقد جمدت أطرافى من البرد ، والتمس المأوى والملجأ تحت سقفك » ٠

واقترب بالأكثر الى النافذة وألصق وجهه بزجاجها ٠ ولكن مصباح الأيقونة الصغير كان ينعكس على الزجاج ويلمع كله بالضوء ٠ ورفع راحتيه الى جانبى وجهه وحملق بينهما ٠ ضباب وندى ٠٠ شجرة ، وفى مقابل وجهه تماما ٠٠ كانت هى بنفسها ٠ فعلا ٠٠ على بعد بوصات قليلة كان وجه حلو يخالط ملامحه علامات من الخوف الرقيق ٠

على رأسها قلنسوة جميلة وينسدل على كتفيها معطف طويل من الفراء الأبيض ٠ ومالت المرأة تتطلع باهتمام نحوه ٠ وتقابلت أعينهما وللوقت عرف كل منهما الآخر ، ليس لأنهما كانا يعرفان بعضهما من قبل ، فهما لم يتقابلا قط من قبل ، ولكن النظرات التى تبادلاها ــ خصوصا هو ــ جعلتهما يشعران أن كلا منهما يعرف الآخر تماما ويفهمه ٠ وبعد هذه النظرة الطويلة ، كان من المستحيل عليه أن يتصور أنها شيطان وليست امرأة بسيطة رقيقة ، حلوة ووديعة ٠

ورفع صوته قائلا : من أنت ؟ ولماذا أتيت ؟

وأجابت فى نبرات ماكرة ولكنها آمرة نافذة : افتح الباب من فضلك ٠ لقد تجمدت ٠ لقد قلت لك انى قد ضللت الطريق ٠

ــ ولكنى راهب ــ ناسك متوحد ٠

ــ أرجوك ، افتح الباب ٠٠ أم لعلك تريد منى أن أتجمد

تحت نافذتك بينما تردد أنت صلواتك ٠

ـ ولكنك ٠٠ كيف ٠٠٠

ـ انى لن آكلك ٠٠ من أجل الله دعنى أدخل ! لقد تصلبت عروقى من البرد ٠

لقد كان يغمرها احســـــاس داهم بالخوف ، فقالت هذه الكلمات المرتعشة بصوت يكاد يختلط بالدموع ٠

وتراجع عن النـــافذة ، وتطلع الى أيقونة المخلص وعلى رأسه اكليل الشوك ، وصرخ من قلبه : يا رب أعنى ٠٠ يا رب أسرع وأعنى٠ ورشم نفسه بعلامة الصليب وهو يطامن برأسه أمام الأيقونة٠ومضى الى الباب ، وافتح الممر المظلم الصغير ومد يده وتحسس مكان الخطاف الذى يوصد الباب الخارجى، ورفع الخطاف ٠ وســـمع وقع أقـــدام فى الخارج ؛ لقد تركت النافذة واتجهت صوب الباب ٠ وصاحت فجأة آه ، وأدرك فى الحال أنها تعثرت فى النقرة التى حفرتها مياه المطر عند عتبة الباب ٠ وارتعدت يـداه ولم يستطع أن يرفع الخطاف عن الباب المغلق باحكام ٠

ـ أوه ٠٠٠ ما هذا الذى تفعله ؟ دعنى أدخل ! لقد ابتلت ملابسى تماما ، وأطرافى تصلبت وتجمدت ! أتفكر فى خلاص نفسك فقط ، وتتركنى هنا أموت من البرد ٠٠٠

وهز الباب نحوه فى عنف ، ورفع الخطاف ٠ ودون أن

يفكر فيما يفعل ، فتح الباب الى أقصاه حتى أنه اصطدم بها .

ــ أوه ... آسف . قال هذا بنفس الطريقة التى كان يتعامل بها مع السيدات فيما مضى .

وابتسمت هى عندما سمعت كلمات اعتذاره ، وتواردت الخواطر سريعة تترى على ذهنها « انه ليس مخيفا كما كانوا يتصورون .. كل شىء على ما يرام » ثم قالت بصوت خفيض وهى تخطو الى الداخل وتتجاوزه « أنا هى التي يجب أن تعتذر ، وتلتمس غفرانك ... ما كان يجب أن أخاطر بنفسى ، ولكن الظروف القاسية هى التى ... » .

ــ لو سمحت ... قال ذلك وهو ينتحى جانبا حتى تستطيع أن تتجاوزه وتدخل . ودخلت الى خياشيمه رائحة عطرها النفاذ ، التى نسيها منذ زمان طويل . وعبرت من المدخل الضيق الى داخل القلاية التى يقيم فيها . وأغلق الباب الخارجى دون أن يثبت الخطاف وتبعها الى الداخل .

ــ يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطىء ! يارب ارحمنى أنا الخاطىء ! كان يصلى بلا انقطاع .. ولم تكن صلاته قلبية فقط ، بل كان يحرك شفتيه دون ارادة أو شعور . وعاد يقول لها ثانية « لو سمحت » بينما وقفت هى فى وسط الحجرة تتساقط منها قطرات المطر على الأرض ، وهى تحدجه بنظراتها الفاحصة من قمة الرأس الى أخمص القدمين ... وعيناها ضاحكتان .. وأجابت ..

– سامحنى لأنى أقلقت وحدتك .. ولكنك تستطيع أن تتبين حرج الموقف الذى أعانيه الآن . لقد ركبنا من المدينة ، ثم راهنت أصدقائى أنى أستطيع العودة بمفردى من بوروبفكا الى المدينة . ثم ضللت الطريق .. ولو لم يصادفنى التوفيق فى العثور على مغارتك ... » وبدأت تسرد سلسلة من الأكاذيب ولكنها لم تستطع أن تقاوم وجهه الصارم فتعثرت فى حديثها ولم تستطع أن تواصل أكاذيبها فركنت الى الصمت . لم تكن تتوقع أن تراه أو تجده على هذه الصورة المهيبة . لم يكن على درجة كبيرة من الجمال كما كانت تتخيله، ومع ذلك فقد كان جميلا بما فيه الكفاية فى نظرها : لقد خط المشيب شعر رأسه ولحيته ، تتخلله تجاعيد خفيفة ، أنفه منتظم رقيق ، عيناه عندما تنظران اليها كأنهما قطعتا فحم متوهجتان ... كان له انطباع عميق فى قلبها .

لقد رأى أنها تكذب .

– نعم ... والآن ..، نظر اليها ثم غض من بصره وهو يكمل حديثه ، سأدخل أنا هناك ، أما هذا المكان فهو تحت أمرك .

وأنزل المصباح، وأوقد منه قنديلا صغيرا، حياها بانحناءة خفيفة ثم دخل مغارته الداخلية الصغيرة وراء الحاجز الفاصل، واستطاعت أن تدرك أنه ينقل بعض الأشياء من مكان الى آخر : « لعله يحصن نفسه خوفا منى » وابتسمت عندما ومضت هذه الفكرة فى ذهنها وخلعت فراءها الأبيض وألقته

بعيدا عنها ، ثم حاولت أن تخلع قلنسوتها التى اشتبكت مع شعرها (والمشبك) الذى ترتديه تحتها · لم يصبها البلل عندما كانت واقفة عند النافذة ، ولكنها قالت ذلك حتى ترغمه على ادخالها · ولكنها تعثرت حقا فى الحفرة عند الباب وابتلت قدمها اليسرى حتى المفصل كما امتلأ حذاؤها بالماء · واستوت جالسة على فراشه الذى لم يكن سوى مقعد مستطيل غطاه بقطعتين من السجاد ، ثم أخذت تخلع الحذاء · وجاست ببصرها فى أنحاء القلاية ، وبدت فى عينيها رائعة ساحرة · القلاية الصغيرة حوالى سبعة أقدام عرضا وتسعة طولا كانت نظيفة جدا كالزجاج النقى · لم يكن فيها من الأثاث سوى هذا المقعد الذى جلست عليه ، فوقه رف الكتب ، ومنجلية القراءة فى الزاوية · وبالقرب من الباب كانت الفراجيه (الملابس السوداء للكاهن) ومعطف من جلد الغنم معلقان فى مسامير · فوق المنجليه كان المصباح الصغير أمام صورة السيد المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك · كان جو الغرفة مشبع برائحة غريبة هى مزيج من رائحة العرق ورائحة التراب · لقد استهواها كل شىء ··· حتى هذه الرائحة · أحست بالألم فى قدميها المبللين ، خصوصا احداهما ، وبدأت تخلع حذاءها وجوربها بسرعة دون أن تكف عن الابتسام · لم يكن شعورها بالسرور لأنها حققت هدفها قدر شعورها الغامر بالسرور لأنها أشاعت القلق والاضطراب فى نفس ذلك الرجل الرائع الغريب ، بشخصيته القوية وجاذبيته الساحرة ، ثم قالت بينها وبين نفسها : انه لم يتجاوب معى ، ولكن ·· ليس هذا مهما ·

ــ أبــونا سرجيوس ٠٠ أبــونا سرجيوس ! ٠ أو كيف أدعوك ؟

وأجابها صوت هادىء : ماذا تريدين ؟

ــ أرجو أن تســامحنى حقا ، لأنى أفســدت وحدتك ، ولكننى بالحقيقــة لم يكن فى مقدورى أن أفعــل غير ذلك ٠٠٠ لو لم أفعــل ٠٠٠ لــكان من الضرورى أن أصاب بمرض خطير ٠٠ ولا أعرف ان كنت الآن فعلا قد أصبت ٠٠٠ لقد تبللت تمــاما ، وقدمى كأنهمــا قطعتان من الثلج ٠

وعاد الصــوت الهــادىء يجيبها من الداخــل : آسف جدا ٠٠ لا يمكن أن أقدم أية معونة لك ٠

ــ لو كان فى استطاعتى ، لمــا أزعجتك يا أبى ٠ سأظل هنا حتى مطلع النهار فقط ٠

ولم يحر جوابا ، الا أنها سمعته يتمتم شيئا ما ، لعلها صلواته ٠

«حقا٠٠هذا رجل» وعادت الى خواطرها وهى تخلع حذاءها المبتل بصعوبة ٠ لقد شدت حذاءها بقوة ولكنه لم ينخلع ٠٠ شىء سخيف ولكنه مضحك ٠٠ وبدأت تضحك من نفسها بصوت غير مسموع ٠ ولكنه اذا سمع نغمات صوتها الضاحك فلابد أن يتأثر وينفعل ، كما تريده هى ٠ وضحكت بصوت مرتفع ٠٠ ضحكتها المرحة الطبيعية الرقيقة ٠٠٠ ولم يكن هنالك من شك أنه سمع وأنه انفعل ٠

« حقا يمكن أن أحب رجلا كهذا ـ هذه العيون وهذا الوجه النبيل البسيط ، وفى نفس الوقت رجل عاطفى حساس رغم كل الصلوات التى يلهج بها ••• » وتدافعت الخواطر ، « لا يمكنك أن تخدع امرأة فى هذه الأمور •• لم يكد يطل من النافذة ويرانى حتى عرفنى وأدرك ما فى نفسى •• كان هناك بريق فى عينيه لم ينطفىء •• لايزال فيهما • لقد بدأ يحنو على وتتحرك فيه عاطفة الحب •• انه يريدنى •• نعم •• يريدنى » •

وكانت قد نجحت فى خلع غطاء حذائها ثم الحذاء نفسه وأخيرا خلعت جوربها • ولكى تخلع هذا الجورب الطويل المثبت بحزام من المطاط (الأستك) كان من الضرورى أن ترفع ذيل ردائها • وداهمها شعور بالحيرة ، ونظرت فى كل اتجاه ثم قالت :

ـ لا تدخل !

وعاد الصمت يخيم على المكان لأن الجانب الآخر من الجدار لم ينبس ببنت شفة •

واستمر صوت التمتمة والحركة •

« لا شك أنه ساجد على الأرض ، ولكنه لا يريد أن تنحنى نفسه وذاته الباطنية ••• لعله يفكر فى كما يشغل هو أفكارى •• لعله يتأمل فى قدمى بنفس الشعور الذى يملأ نفسى » وخلعت جوربها المبلل ، ورفعت قدميها تحتها على المقعد ، وضغطت عليهما حتى ينالا شيئا من الدفء وانقضت

فترة وهى جالســة على هذه الصـورة ، وقد لفت ركبتيها بذراعيها ، وسرحت ببصرها فى تفكير عميق : ولكن هذه صحراء مقفرة ، برية قاحلة يسـودها الصمت والسـكون ٠

٠٠٠ لن يعرف أحد ٠٠٠٠

ونهضت من مكانها ، وأخذت جوربها الى الموقد وعلقته فوق بلاط التحميص ٠ كانت البلاطة غريبة ، وأخذت تقلبها فى يديها ٠٠ ثم خطت بقدميها العاريتين فى رفق وعادت الى مقعدها واستردت مجلسها كما كانت بعد أن وضعت قدميها على المقعد ٠

كان الصمت يخيم على الجانب الآخر تماما ٠ ونظرت الى سـاعتها الصغيرة المعلقة فى رقبتها ووجدت أن السـاعة قد بلغت الثانية صباحا « جماعتنا سوف تعود حوالى الثالثة ! » اذا فلم يبق أمامها سوى ساعة واحدة « حسنا ، هل يجب على أن أظل جالسـة على هذه الصورة وحيـدة تماما ؟ ٠٠ كلام فارغ ٠٠ لا أحب أن أجلس هكذا ٠٠٠ لابد أن أناديه حالا » ٠

ـ أبـونا سرجيوس ٠٠ أبـونا سرجيوس ٠٠ سيرجى ديمتريش ! أيها الأمير كازاتسكى !

ولم يصل الى أذنيها أى صوت عبر الحاجز ٠

ـ اسمع ! ٠٠ انها قسوة ٠٠ ما كان يمكن أن أدعوك لو لم تكن هناك حاجة ماسة الى ذلك ٠ انى مريضة ٠٠ لا أعرف ماذا أصـابنى ٠٠٠ ثم صاحت فى صوت

يمزق الألسم نبراته ·· آه ·· آه ·· وأخذت تئن وتتوجع ، وترتمى على المقعد ·

والشيء الغريب حقا انها أحسست بالفعل أن قواها تنهار حتى كادت تروح فى غيبوبة ، كل أطرافهـا أخذت تصطك بفعـل دبيب الرطوبة والبرودة التى سرت فى أوصـالها · وأخذ جسدها كله يرتعش بالحمى ·

ـ اسمع ·· الحقنى واعنى ! لا أعرف ماذا أصابنى ·· آه ·· آه · وفكت أزرار فسـتانها ، وكشفت عن صـدرها ، ورفعت ذراعيها عاريتين حتى المفصل ·· وهى تصيح وتئن ·· أوه ·· آه ··

وطوال هذا الوقت ، كان سرجيوس فى مكانه فى الجانب الآخر من الحاجز يصلى · وبعد أن انتهى من صلواته الليلية ، وقف مكانه بلا حراك ، وعيناه لا تنظران الا الى أرنبة أنفه ، وكان يردد عقليـا بكل روحه ووجدانه : يا ربى يسـوع المسـيح ، ابن الله ارحمنى !

ولكنه سـمع كل شيء ·· سـمع حفيف ثوبها الحريرى عندما خلعته ، سمع وقع قدميها العاريتين على الأرض ··· وسمع يديها وهى تدلك بهما قدميها ·· لقد أحس احساسا عميقا بضعفه البشرى ··· وخاف لئلا ينهار ويسقط فى أى لحظة · ولهذا لم يتوقف عن الصلاة ·· اختبر ذلك الشعور الذى تتحدث عنه الأساطير عن ذلك البطل الذى كان عليه أن يمضى قدما ·· لا يتوقف ·· ولا يلتفت الى الوراء ··

هكذا سمع سرجيوس ، وشعر بالخطر والهلاك اللذين يحلقان فوقه ، ويحدقان به .. وانه لا يمكن أن ينجو منهما الا بالاحتراس والحذر حتى لا تتجه عيناه اليها لحظة . ولكنه بوغت بتلك الرغبة فى النظر ، تأخذ عليه مجامع قلبه .. وفى هذه اللحظة سمعها تقول ...

– ألا يوجد عندك انسانية ؟! .. ربما أموت ...

صحيح .. سأذهب اليها . ولكنى سأذهب اليها كالقديس الذى وضع احدى يديه على الزانية ووضع الأخرى فى موقد الفحم وسط الجمر الملتهب ... ولكن هنا لا يوجد موقد للفحم ، وجال ببصره فى أنحاء مغارته الضيقة .. المصباح أو القنديل ! ووضع أصبعه فوق لهب القنديل ، وزوى ما بين حاجبيه استعدادا للشعور بالألم . وبدا له أن الوقت يمضى طويلا دون أن يشعر بأى ألم ، ولكنه على حين غرة – ولم يكن قد شعر بالألم قد بلغ غايته – انكمش كل كيانه ، وجذب يده بعيدا ولوح فى الهواء .. « لا .. لا يمكننى أن أحتمل ذلك » .

– لأجل خاطر ربنا ، اسرع الى وأعنى ! اننى أموت .. آه .

– وماذا بعد ؟ – هل أهلك ؟ لا .. لن يكون .

وأجابها : سآتى اليك حالا ، وفتح الباب . ودون أن يتجه اليها بعينيه ، اجتاز القلاية الى الممر الضيق المظلم حيث

اعتاد أن يقطع الخشب .. وهناك تحسس مكان الكتلة التى يستخدمها لهذا الغرض ، والفأس الذى كان مسندا الى الجدار .

وعاد يقول : حالا .. ثم أخذ الفأس الصغير بيده اليمنى ، ووضع سبابة يده اليسرى على الكتلة ، ورفع الفأس وضرب به المفصل الثانى من أصبعه . وانفصل الأصبع بسهولة أكثر من عصا فى مثل سمكه ، وتطاير على الكتله وارتطم بحافتها ثم سقط على الأرض .

لقد سمع صوت سقوطه على الأرض ، قبل أن يشعر بالألم الحاد ، وقبل أن يوجد أى وقت للدهشة أو العجب ، أحس بذلك الألم الملتهب ، ودمه الدافىء ينساب من أصبعه . وأسرع يلف المفصل الباقى من أصبعه فى طرف ثوبه ضاغطا اياه فى جنبه ثم عاد الى الحجرة ووقف فى مواجهة المرأة ، وخفض عينيه وسألها فى صوت خافت : ماذا تريدين ؟

ورفعت عينيها الى وجهه الشاحب ، ولاحظت خده الأيسر يرتعش ، وغمرها شعور بالخزى والخجل . وقفزت على قدميها واقفة ، وأمسكت فراءها وأحاطت به كتفيها وغطت نفسها به .

– كنت أحس آلاما شديدة ... أصابنى برد شديد .. أنا ... أيها الأب سرجيوس ... انى ..

ولمعت عيناه بوميض هادىء من الفرح ، وسمح لهما أن يستقرا عليها ثم قال لها :

– يا أختى العزيزة .. لماذا تعملين على هلاك روحك

الخالدة ؟ العثرات لابد أن تأتى فى العالم ، ولكن ويل لمن تأتى بسببه العثرة ... اطلبى الى الله عسى أن يغفر لكلينا ..

أرهفت السمع لكلماته ، ونظرت فى وجهه .. ولكنها سمعت صوت قطرات تتساقط واتجهت ببصرها صوب هذا الصوت ورأت الدم يتســـاقط من يده ويجرى على ردائه الأسود .

ــ ماذا فعلت بيدك ؟

وتذكرت ذلك الصوت الذى سمعته منذ قليل ، وأمسكت بالمصباح وهرولت نحو الممر الضيق ووجدت على الأرض أصبعه المقطوع ملطخا بالدم . عادت وقد ازداد وجها شحوبا عما كان عليه وجهه هو ، وأرادت أن تفتح فمها وتتكلم . ولكنه مضى فى صمت الى حجرته الداخلية وأغلق الباب .

ــ سامحنى .. ماذا أفعل لكى أكفر عن خطيئتى .

ــ امض الى حال سبيلك .

ــ اسمح لى أن أضمد يدك .

ــ دعينى وشأنى .. أخرجى من هنا ..

وارتدت ملابسها على عجل فى صمت ، وجلست فى كامل ملابسها تنتظر .. وسمعت أجراس العربة تدق فى الخارج ..

ــ يا أبى سرجيوس .. أغفرلى وسامحنى ...

ــ اذهبى ... الله يسامحك .

ــ يا أبى سرجيوس .. سأغير حياتى .. لا تتركنى ..

ــ مع الســـلامة !



... دخلت أحد أديرة النساء كمبتدئة تحت التدريب

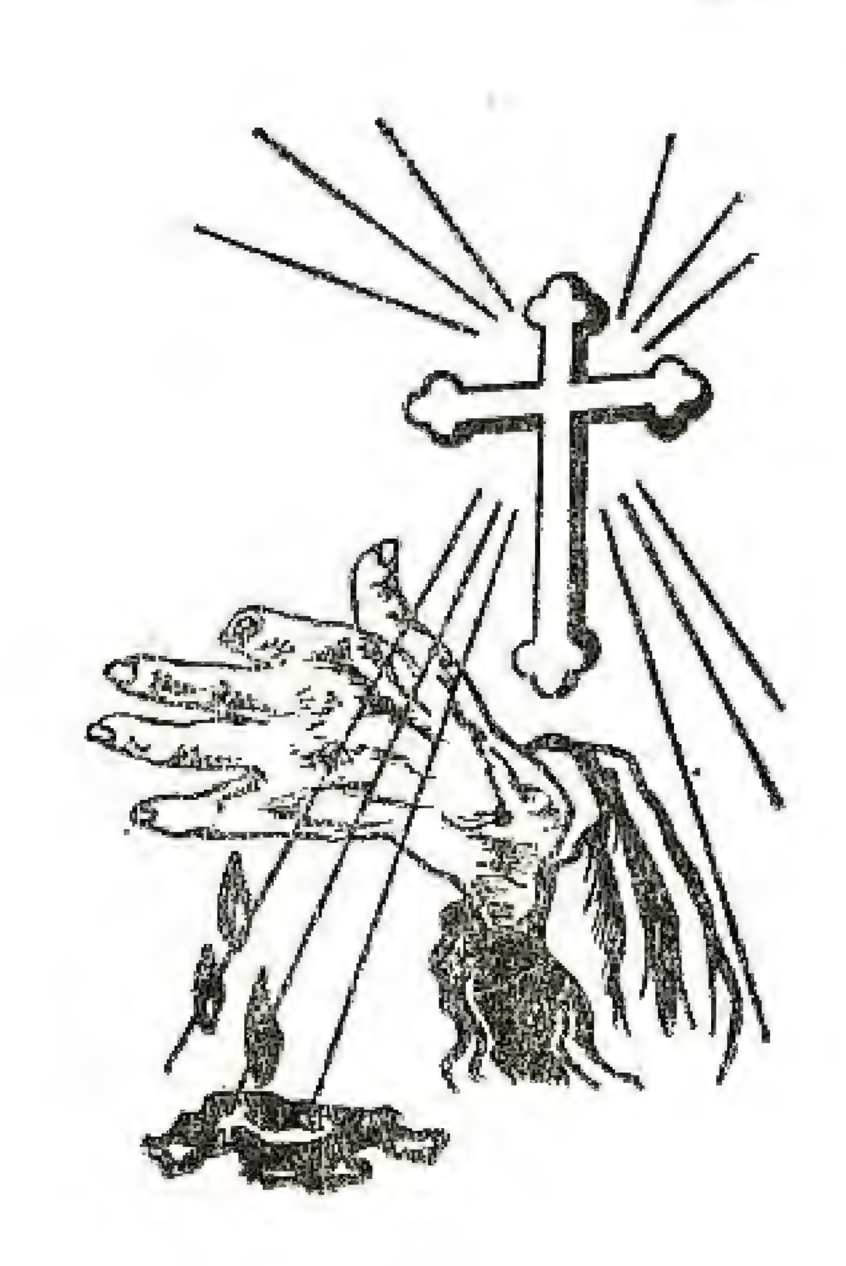
ـ سامحني يا أبي ـ وباركني ·· !

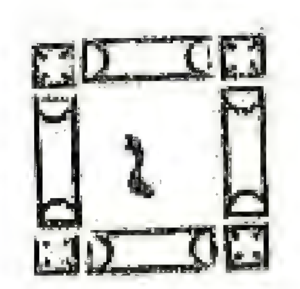
ـ باســم الآب والابن والروح القدس ··· وسمعت صوته من وراء الباب يقول : اذهبي ·· امضِ الى حال سبيلك !

وانفجرت باكية وهي تغادر القلاية ، وأقبل نحوها المحامي ويقول : أرى أني قد خسرت الرهان ·· لم يكن لي حظ في ذلك ··· تفضلي أين تجلسين ؟

ـ في أي مكان ·· ثم اتخذت مكانها في العربة ، ولم تنطق كلمة واحدة طوال الطريق في عودتهم ·

وبعد سنة من هذا الحادث ، دخلت أحد أديرة النساء كمبتدئة تحت التدريب ، وعاشت حياة صارمة تحت ارشاد الناسك الأب أرسانيوس ، الذى كان يواظب على الكتابة اليها من حين الى آخر ·





وعاش الأب سرجيوس متوحدا سبع سنين أخرى . فى بداية الأمر كان يقبل الكثير مما يجود به الناس عليه : شاى ، سكر ، خبز أبيض ، لبن ، قماش وخشب الحريق ، ولكنه مع مرور الزمن أخذ يلتزم بأسلوب أكثر زهدا وتقشفا. كان يرفض ما يزيد على حاجته ، وفى النهاية كان لا يقبل سوى الخبز المخلوط مرة كل أسبوع ، وكل ما عدا ذلك كان يوزعه على الفقراء الذين يطرقون بابه . كان يقضى كل وقته فى قلايته اما فى الصلاة أو فى الحديث مع زائريه الذين أخذ عددهم يتزايد مع مرور الوقت . كان لا يبارح قلايته الا ثلاث مرات فى السنة لحضور القداس فى الكنيسة ، أو اذا دعت الضرورة لاحضار الماء أو الخشب .

كان لقاؤه مع داكوفكينا بعد السنة الخامسة من حياته فى الوحدة .. وسرعان ما انتشرت أخبار هذه الحادثة سواء زيارتها الليلية أو التغير الذى طرأ على حياتها أو دخولها فى سلك الرهبنة . ومن ذلك الوقت ذاعت شهرة الأب سرجيوس ، وبالتالى تزايد عدد الزائرين .. وبدأت البرية تمتلىء بالرهبان الذين حطوا رحالهم وأقاموا على مقربة من مغارته ، ثم أقيمت كنيسة ودار للضيافة . ومع ذيوع صيته وشهرته ، كانت فضائله وصفاته تمتدح وكالمعتاد كان لابد

من المبالغة في مواهبه · وبدأ الناس يتقاطرون عليه من كل حدب وصوب ، من مسافات بعيدة ، وبدأوا يحضرون معهم المرضى لأنه كان يشفيهم ·

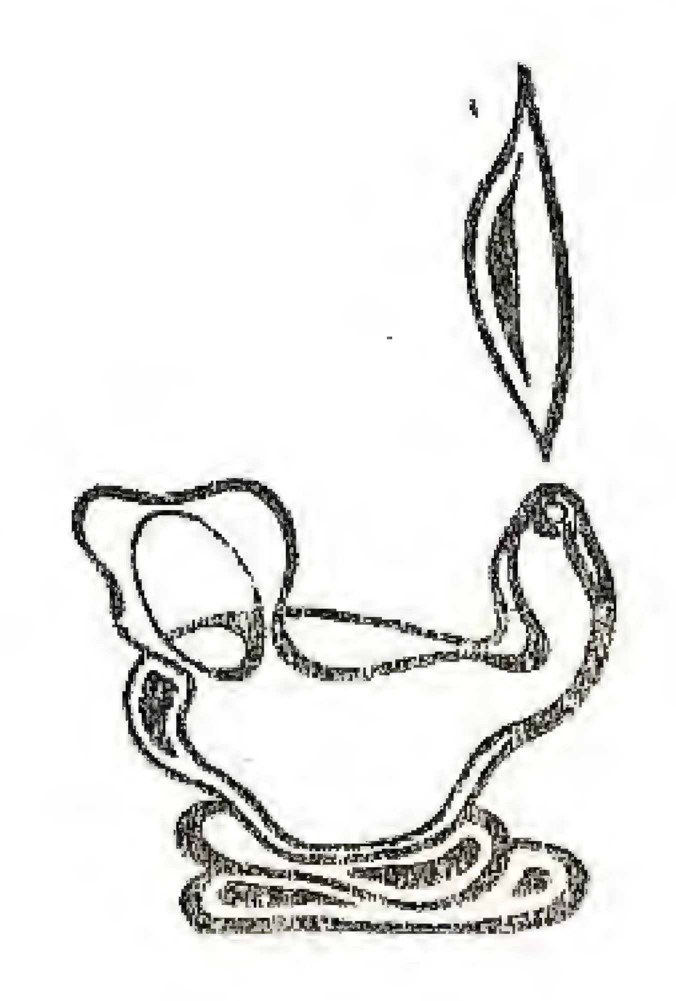
وقد حدثت أول معجزة للشفاء فى السنة الثامنة من حياته كمتوحد · شفى صبيا فى الرابعة عشر من عمره أحضرته أمه الى الأب سرجيوس وطلبت اليه بالحاح واصرار أن يضع يده على رأس الصبى · لم يدر بخلد الأب سرجيوس أنه يستطيع أن يشفى المرضى ، وكان يعتقد أن مجرد ورود هذه الفكرة على ذهنه انما خطية عظيمة ·· غرور وكبرياء ولكن أم الصبى توسلت اليه بالحاح ، ووقعت عند قدميه صارخة : أنت الذى تشفى كثيرين ، لماذا ترفض أن ترحم ابنى ؟ وتوسلت اليه باسم المسيح · وأكد لها الأب سرجيوس أن الله وحده هو القادر أن يشفى المرضى فأجابته أن كل ما تطلبه أن يضع يديه على رأس الصبى ويصلى لأجله · ورفض الأب سرجيوس وعاد الى قلايته · ولكنه فى اليوم التالى ، وكان ذلك فى فصل الخريف الذى تشتد فيه برودة الليل ، عندما خرج لاحضار الماء ، وجد نفس الأم مع ابنها ·· صبيا شاحبا فى الرابعة عشر ··· وطلبت منه مرة أخرى بلجاجة ··

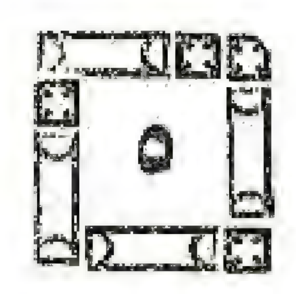
وتذكر مثل قاضى الظلم ، ومع أنه كان واثقا من أنه على حق فى الرفض ، الا أنه بدأ الآن يتردد · وبعد التردد بدأ يصلى ·· وظل يصلى حتى استقرت نفسه على قرار · وكان قراره أن لابد من الاستجابة لتوسلات المرأة ، وليكن لها

حسب ايمانها • فقد ينجو ابنها بفضل هذا الايمان• أما فيما يختص به ، فلا يعدو أن يكون أداة بسيطة فى يدى الله •

وعندما خرج الى المرأة ، فعل كما طلبت ووضع يده على رأس الصبى وصلى • ومضت المرأة مع ابنها • وبعد مضى شهر شفى الصبى وطارت شهرة الأب سرجيوس فى كل مكان وعرف عنه أنه وهب قوة الشفاء • وبعد ذلك لم يكن يمضى أسبوع دون أن يأتى اليه المرضى ، راكبين أو على الأقدام • وما دام قد قبل طلبة انسان فلابد أن يستجيب لتوسلات الجميع فيضع يديه على الكثيرين ويصلى • وكثيرون نالوا البرء من أسقامهم ، ومع كل معجزة كانت شهرة الأب سرجيوس تنمو وتزداد •

والى هنا يكون الأب سرجيوس قد أمضى سبع سنوات فى الدير ، وثلاث عشرة سنة فى حياة التوحد فى مغارته • وقد بدت عليه مظاهر الكبر ، لحيته مسترسلة وخطها المشيب ولكن شعره رغم أنه نحيل الا أنه كان يحتفظ بلونه الأسود وتجاعيده •





مضت عدة أسابيع على الأب سرجيوس ، تراوده فكرة معينة ملحة ، يقلبها على كل وجه «هل كان جديرا به أن يقبل المركز الذى أتيح له بواسطة الارشمندريت أو رئيس الدير. هذه المكانة بدأت منذ شفاء الصبى . من ذلك الحين ، كل شهر بل كل أسبوع بل كل يوم يمر كان يحس أن حياته الداخلية تنساب منه وتتبدد ، وبدأت تحل محلها حياة خارجية ... كان كما لو كان قد انقلب ظهرا لبطن .

لقد أدرك سرجيوس أنه يستخدم كوسيلة لاجتذاب الزائرين ، والتبرعات للدير . ولذلك فقد رتبت سلطات الدير جميع الأمور بحيث تحسن استغلاله بقدر الامكان ، فمثلا رأوا أنه من غير اللائق أن يقوم بأى عمل يدوى ، فقرروا أن تقدم له كل احتياجاته ... كل ما طلبوه منه ألا يرفض تقديم بركاته لمن يلتمسها . ورغبة فى توفير الراحة له ، حدود الأيام التى يسمح فيها باستقبال الزائرين ، وجهزوا حجرة استقبال للناس وأحاطوا المكان الذى يجلس فيه بافريز معين من السلاسل حتى لا يزحمه الزائرون خصوصا السيدات .. كما يمكنه بسهولة أن يبارك كل من يأتى اليه .

قالوا له أن الناس فى حاجة اليه ، ولا يمكنه أن يرفض رغبتهم فى رؤيته ، تنفيذا لوصية المسيح عن المحبة ٠٠ فاذا تحاشى لقاء الناس أو رؤيتهم ، فهذا هو عين القسوة التى تتنافى مع محبة المسيح ٠ ولم يجد بدا من الموافقة ٠ وكلما استسلم لحياة الخدمة والعمل وسط الناس ، كلما شعر أن انسانه الباطن قد انتقل الى الخارج ، وأن ينبوع الماء الحى فى أعماقه قد بدأ يجف ٠٠٠ أحس أن كل ما يفعله انما يصنعه بالأكثر من أجل الناس لا من أجل الله ٠

عندما كان يعظ الناس ، أو يباركهم فقط ، أو يصلى من أجل المرضى ، أو يقدم مشورته من أجل حياتهم أو عندما كان يسمع عبارات الشكر والمديح من أفواه الاخوة الذين كان يقدم معونته اليهم سواء بالتعاليم أو الصدقات أو الشفاء ـ كما كانوا يؤكدون له ـ فى كل حالة من هذه الحالات لم يستطع أن يقاوم شعوره الدفين بالرضى والسرور ، ولم يستطع أن يواجه النتائج التى حققها نشاطه ، أو التأثير الذى يبدو واضحا من معاملاته ، لم يستطع أن يقابل هذا كله بدون اكتراث أو يتجرد عن الانفعالات التى يثيرها مثل هذا النفوذ. بدا له أنه نور يضىء فى هذا العالم المظلم ٠٠٠ وكلما نما هذا الشعور ، كلما أحس أن نور الحق الالهى فى داخله كان يخبو ويضعف ويموت ٠

« هذا الذى أعمله ، الى أى مدى أعمله من أجل الله ، والى أى مدى أعمله من أجل الانسان ؟ » كان هذا هو السؤال

الذى يقلق ضميره ويلح عليه فيعذبه • وكان عجزه عن الوصول الى الجواب الشافى أيسر من عجزه عن مواجهة هذه الاجابة •

كان يشعر فى أعماق نفسه ، أن الشيطان أتاح له هذا النشاط بين الناس لكى يحل محل نشاطه الروحى السابق أمام الله • أدرك ذلك ، ورأى كيف كان يشق على نفسه أن ينتزع من وحدته وسكونه ••• أما الآن فقد صارت هذه الوحدة أمرا صعب المنال • كان الزائرون يضغطون عليه ويرهقونه ، ولكنه فى قرارة نفسه ، كان يغتبط بوجودهم ويسره المديح الذى يكيلونه له •

فى احدى المرات قرر أن يهرب بعيدا ويختفى •• وأعد كل شىء لتحقيق هذه الخطة •• أعد لنفسه قميصا يشبه قمصان الفلاحين كما أعد باقى الملابس التى سيتخفى فيها، السروال والمعطف والطاقية • ولكى يطفىء فضول السائلين ادعى أنه يريد هذه الأشياء حتى يقدمها للمحتاجين اليها • واحتفظ بهذه الملابس فى قلايته ، ورتب كل شىء : كيف يلبسها ، يقص شعره ثم يهرب بعيدا ••

قرر أن يقطع الثلاثمائة فرسخ (ميل روسى = ٣٥٠٠ قدم) الأولى بالقطار ، بعدها يترك القطار ليمشى من قرية الى أخرى • وقد استفسر من أحد الشيوخ ، كان جنديا فيما قبل ، كيف يمارس سياحته ، وأى الناس يسخو فى العطاء، والمأوى الذى يقدمونه للسياح الأتقياء • وشرح له الشيخ

ووصف له الأماكن التى يتميز سكانها بالسخاء فى العطاء ، وأين يرحبون بالغرباء ويفتحون أبوابهم لضيافتهم أثناء الليل ، ووضع الأب سرجيوس فى نفسه أن ينتفع بهذه المعلومات ٠٠٠ وفى احدى الليالى ، استبدت به الرغبة فى الهرب فارتدى الملابس التى أعدها، ولكنه تردد وهو يتساءل أيهما أفضل : أن يبقى أم يمضى ؟ ولم يستطع أن يجزم أو يحسم الأمر ٠٠ فى البداية كان يساوره الشك والقلق ، ولكنه بعد ذلك تجاوز محاسبة الضمير ، واستسلم الى ما اعتاده من ممارسات يومية ، أخلد الى شيطان التراخى والكسل ٠٠ ولكنه كان يتذكر ثورة الضمير والاحساس بالجفاف كلما وقعت عيناه على قميص الفلاح ٠

فى كل يوم كان يتزايد عدد الناس الذين يتجمهرون حوله ، حتى لم يكد يجد الوقت الكافى لممارسة الصلاة وتجديد قواه الروحية ٠ فى بعض الأحيان تومض فى ذهنه الخواطر ٠٠ يرى نفسه كأنه مكان جف ينبوعه « كان هناك ينبوع صغير من الماء الحى ٠٠ وكان هذا الينبوع ينساب فى وعن طريقى ٠٠ تلك كانت هى الحياة الحقيقية ٠٠٠ ذلك الزمان الذى جربتنى فيه المرأة باغرائها » ٠٠ كان يتذكر دائما تلك الليلة ، ويتذكر تلك المرأة التى صارت الآن الأم أجنس ٠٠ عندما يتذكر هذه الخواطر كان يحس بنشوة السرور ٠٠ لقد ذاقت ذلك الماء النقى الحى ، ولكن ٠٠ منذ ذلك الحين لم يتوفر الوقت لكى تجتمع المياه أمام العطاش الذين دأبوا على التجمع معا يزاحم بعضهم بعضا ٠٠ لقد

داسوا بأقدامهم على كل شيء حتى لم يبق هناك شيء سوى الطين والوحل ٠

هكذا كان يفكر في لحظات الاشراق والشفافية ، ولكن احساسه العادى كان شعورا بالتعب والملل ، وكان يحنو على نفسه ويعطف على ذاته بسبب هذا الارهاق ٠

وجاء الربيع وفى احدى ليالى عيد البنتيكستى (حلول الروح القدس) كان يؤدى صلاة عشية فى كنيسة المتوحدين حيث اجتمع المصلون على قدر الكنيسة الصغيرة حوالى عشرين شخصا ، وكان جلهم من الأثرياء والتجار ٠ وكان الأب سرجيوس يستقبل أى شخص بعد ذلك ، الا أن أحد الآباء الرهبان انتدب من الدير وكان عليـه أن ينظم الراغبين فى الدخول اليه فيختار من يسمح لهم بالدخول ٠ وفى خارج الكنيسة تجمع ما يقرب من الثمانين شخصا ــ سياح وحجاج وفلاحين وفلاحات ــ فى انتظار خروج الأب سرجيوس لكى يباركهم ٠ فى هذه الأثناء كان يرفع الصلوات الطقسية حتى حان الموعد الذى يخرج فيـه الى قبر سلفه فاذا به يترنح ويكاد يسقط لولا أن أمسك به أحد التجـار كان واقفـا خلفه ، والراهب الذى كان يقوم بعمل الشماس ٠

وتصايحت النساء : ما الخبر ، وماذا حـدث لأبينـا سرجيوس ؟ الرجل المحبوب ٠٠

يالله ٠٠٠ انه شاحب جدا كالملاءة البيضاء ٠٠

ولكن الأب سرجيوس استعاد توازنه بسرعة ، ومع أنه

كان شاحب الوجه الا أنه أزاح التاجر والراهب جانبا ، وواصل ترتيل الخدمة ٠

تقدم اليه الأب سيرافيم والشماس والاغنسطس والسيدة صوفيا ايفانوفا التى كانت تقيم على مقربة من الدير ، وتعتنى باحتياجات الأب سرجيوس ، وطلبوا اليه أن يعجل بانهاء الخدمة ٠

ولكن الأب سرجيوس أجابهم : لا ٠٠ ليس هناك ما يقلق أو يستوجب ذلك ٠

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه ، يظللها شاربه الذى امتد فى وسط لحيته المسترسلة الطويلة ٠٠٠ « نعم هكذا كان يتصرف الآباء القديسون » ٠

وسمع فى تلك اللحظة صوت صوفيا ايفانوفا خلفه وهى تقول : « رجل قديس ٠ ملاك من قبل الله » وأمن التاجر ، الذى أسنده ، على قولها . لم يعر رجاءها التفاتا ومضى يواصل صلاة الخدمة ٠ وعندما عاد من مقبرة سلفه ، كان الناس قد ازدحموا من جديد فى الكنيسة ، وأتم الأب سرجيوس صلاة الساعة الثانية عشر وان كان قد أوجز فيها قليلا ٠

وبعد انتهاء الخدمة ، أعطى الأب سرجيوس البركة للحاضرين ثم خرج ليجلس تحت شجرة السرو عند مدخل المغارة ٠٠ كان يريد الراحة وأن يستنشق الهواء العليل ٠٠ كان يشعر أنه فى حاجة الى ذلك ٠ ولكنه ما كاد يبارح الكنيسة حتى اندفع اليه الناس يطلبون بركته ويلتمسون

ارشاده ونصحه ويلحون فى طلب المعونة • كان هناك جماعة من السياح الذين يتنقلون بين الأماكن المقدسة ، ويطوفون بالنساك والمتوحدين تستهويهم مدافن القديسين ويجتذبهم شيوخ الرهبان • كان الأب سرجيوس يعرف جيدا هذا النوع الذائع من التدين التقليدى البارد ولو أنه فى نفس الوقت لا يمت الى روح التدين الصحيح • كان معظم هؤلاء الحجاج من الجنود المسرحين ، الذين لم يعتادوا الحياة المستقرة المنتظمة عليهم علامات الفقر المدقع ، وكثيرون منهم كانوا من العجائز الذين اعتادوا الشراب ، والانتقال من دير الى آخر لمجرد طلب الطعام • وبين المنتظرين كان عدد من الفلاحين خشنى الطباع ، وعدد من الفلاحات كلهم أتوا سعياً وراء طلباتهم وحاجياتهم الشخصية وبعضهم يلتمس الشفاء والبعض الآخر يسأل النصيحة فى تدبير شئونهم العملية وحل مشاكلهم : زواج ابنة ، استئجار دكان ، شراء قطعة أرض •• هذه تسأل كيف تكفر عن ذنبها لانها مالت بجسدها وهى نائمة على طفلها فمات ، وذاك يريد أن يكفر عن خطيئة زنا •••

كل هذه كانت قصص معادة ، ليس فيها ما يستهويه • وكان يعرف مقدما أنه لن يسمع شيئا جديدا من هؤلاء الناس وبالتالى لن يستثيروا مشاعره الروحية • ومع ذلك فقد كان يحب أن يتكالب عليه الناس الذين صارت لهم نصائحه وبركاته من ضرورات حياتهم الثمينة • ولهذا فمع أن هذا الجمع كان يرهقه ، الا أنه كان يشبع رغبته ويملأه بالسرور • بدأ الأب سيرافيم يصرفهم معلنا لهم أن الأب سرجيوس متعب

عليل ، الا أن الأب سرجيوس تذكر كلمات الانجيل : دعوا الأولاد يأتون الي ولا تمنعوهم • وساوره شعور مرهف رقيق بالرضى عن نفسه ، عندما خالجته هذه الخواطر ، وقال للأب سيرافيم أن يسمح لهم بالتقدم اليه •

ونهض الأب سرجيوس قائما ، واتجه نحو الافريز حيث تجمع الجمهور وبدأ يباركهم ويجيب على أسئلتهم ولكن بصوت خافت ضعيف جعله يرثي لنفسه ويشفق على ضعفه • ومع أنه كان مستعدا لاستقبال الجميع الا أنه لم يتمكن من ذلك • بدأت الأشياء تظلم أمام عينيه ، وترنح ثانية فتشبث بالافريز حتى لا يقع • شعر بالدماء تندفع حارة الى رأسه ، فشحب وجهه • ثم أحمر فجأة •• « يجب أن أترك الباقين الى الغد ، لايمكنني أن أعمل أكثر من ذلك •• الآن » • ورفع صوته يتلو البركة الرسولية ثم عاد الى مقعده • وأسرع التاجر يسنده ثانية ويمسك بذراعه ويقوده حتى يجلس •

وترامت اليه أصوات الجمهور : أبونا •• أبونا المحبوب! لا تتركنا •• بدونك لابد أن نهلك !

وبعد أن أجلس التاجر الأب سرجيوس على مقعده تحت شجرة السرو ، أخذ على عاتقه القيام بدور رجل البوليس وأصر على انصراف الناس • صحيح أنه كان يتكلم بصوت خافت حتى لا يسمعه الأب سرجيوس ولكن كلماته كانت حادة غاضبة •• « هيا خارجا ، هيا خارجا ! ألم يمنحكم البركة ، ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ هيا اخرجوا ، والا دققت

أعناقكم ! تحرك هناك .. هيا أيتها العجوز واسحبى معك شرائط رجليك القذرة ! هيا هيا .. الى أين تشق طريقك يا هذا ؟ لقد قيل لكم أن الزيارة قد انتهت . غدا يدبر الله حسب مشيئته ، أما اليوم فقد انتهى ... » .

وقالت احدى العجائز : الأب سرجيوس ... يكفى فقط أن تسمح لى أن ألقى نظرة الى وجهه المبارك .

ـ سأقوم بذلك بدلا منك . . الى أين تتدافعين ؟ وتحشرين نفسك ؟

لاحظ الأب سرجيوس أن التاجر يعامل الناس بخشونة وفظاظة ، وفى صوت منهك النبرات طلب الى خادمه أن لاينبغى أن يطرد الناس . كان يعلم أنهم سوف ينصرفون بطريقة أو بأخرى . وكان يتوق أن يتركه النـاس يخلد الى وحـدته ليستريح ، ولكنه أرسل خادمه بتلك الرسـالة حتى يترك تأثيرا حسنا وانطباعا راضيا فى نفوس الجمهور .

وعندما وصلت الرسالة الى التاجر ، أجاب قائلا : حسنا حسنا ! انى لا أطردهم .. ولكننى أعاتبهم .. أنت تعلم أنهم لن يترددوا فى التزاحم حتى يطأ بعضهم بعضا ، ولو أدى ذلك الى موت أحدهم .. ليس عندهم رحمة ، انهم لا يفكرون الا فى أنفسهم .. ألم أقل لكم من المستحيل أن تروه هذه الليلة .. هيا خارجا !. غدا ان شاء الله ! واستطاع أخـيرا أن يتخلص منهم جميعا .

لقد احتمل كل هذا العناء لأنه كان يحب النظام كمايحب

السيطرة على الغير ، وأن يطرد عامة الناس بعيدا ، الا أن السبب الرئيسى كان رغبته فى الانفراد بالأب سرجيوس • كان رجلا أرملا ، له ابنة وحيدة مريضة لم تتزوج بعد • وقد تحمل مشاق السفر بها ما يزيد على ألف وأربعمائة فرسخ لكى يأتى بها الى الأب سرجيوس لكى يشفيها • لقد ظل طوال السنتين السابقتين يطرق بها مختلف الأبواب لعلاجها ، ذهب بها الى المستشفى الجامعى فى العاصمة بلا جدوى ، ثم أخذها الى أحد الفلاحين فى سمارا حيث تحسنت قليلا ، ثم اصطحبها الى أحد الأطباء فى موسكو حيث أنفق الكثير من المال على علاجها •• ولكن دون أن يظفر بشىء يذكر • ولما سمع أن الأب سرجيوس لديه موهبة الشفاء ، أتى بها اليه • وعندما خلا المكان من جمهور الناس ، اقترب هو من الأب سرجيوس، وسقط ساجدا أمامه على الأرض ، وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ أيها الأب القديس ! بارك ابنتى المعذبة حتى تشفى من مرضها • مستعد أن أسجد عند قدميك الطاهرتين •••

وضع يدا فوق الأخرى ، على شكل الكأس • وكان يقول ويفعل كل هذا كما لو كان يؤدى طقسا مفروضا •• وكأن لا سبيل الى طلب شفاء الابنة الا بأداء هذه الحركات الطقسية! كان يؤدى هذه الأمور بحزم واقتناع الى درجة تصور معها حتى الأب سرجيوس أن هذه هى الطريقة المثلى للقول والفعل• ومع ذلك فقد أمره بالنهوض ، وأن يروى له متاعبه وضيقه نفسه • وقص عليه التاجر ان ابنته التى تبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، أصيبت بمرض عضال منذ سنتين بعد

وفاة والدتها فجأة . لقد حزنت الفتاة وأفرطت فى حزنها ، وحدث لها ما حدث . وها هو قد أحضرها ، وقطع معها ألف وأربعمائة فرسخ .. وها هى تنتظر فى دار الضيافة ، حتى يأمر الأب سرجيوس باحضارها . انها لم تبارح مكانها طيلة النهار لانهـا تخشى النور ، ويمكنها أن تأتى بعـد غروب الشمس .

وسأل الأب سرجيوس : هل تعانى من ضعف شديد ؟

ـ لا .. أنها لا تشكو من ضعف خاص . انها ممتلئة الجسم ، ولكنها ـ كما يقول الأطباء ـ مصابة بالنورستانيا . فقط لو سمحت بأن أحضرها لك فى هـذه الليلة ، يا أبانا سرجيوس ، لجريت فى سرعة الريح لكى آتى بها .. أيها الأب القديس ! ألا تريد أن تنعش قلب أب مسـكين ، ترد اليـه وحيدته وتنقذها من علتها بصلواتك .

ووقع ـ مرة أخرى ـ على الأرض ساجدا ، وانحنى برأسه على قبضتيه ، وظل رابضا عند قدمى الشيخ القديس . وطلب اليه الأب سرجيوس ثانية أن ينهض .. وتأمل الأب فى كثرة شواغله ، وازدحام وقته بمثل هذا النشاط وكيف كان عليه أن يتحمل كل هذا فى صبر وطول أناة .. ثم تنهد بعمق وزفر زفرة حارة ، وبعد فترة من الصمت عاد يقول :

ـ حسنا .. أحضرها لى هذه الليلة . سوف أصلى من أجلها .. أما الآن فانى متعب .. ثم أغلق عينيـه يقـول : سأرسل أستدعيك .

ومضى التاجر يمشى على أطراف أصابعه ، مما جعل حذاءه يصدر صريرا عاليا •• وبقى الأب سرجيوس وحيدا •

كانت كل حياته لا يملأها سوى خدمة الكنيسة والشعب الذى كان يلجأ اليه ، الا أن هذا اليوم بالذات كان يوما مرهقا • ففى الصباح وصل أحد كبار الموظفين وعقد معه نقاشا طويلا ، وبعد ذلك حضرت احدى السيدات مع ابنها ، وكان هذا الابن مدرسا صغير السن من أنصار مذهب الشك • ولكن أمه التقية التى تتمتع بحرارة الايمان ، وتثق فى الأب سرجيوس رأت من الواجب أن تحضر ابنها للحديث مع الشيخ الروحانى • أما الشاب الذى كان يبدو بوضوح أنه لا يريد الدخول فى جدل عنيف مع الراهب ، فقد وافقه على كل شىء كأنه يحاول أن يرضى انسانا يقل عنه ذكاء وحكمة • وقد لاحظ الأب سرجيوس أن الشاب لم يقتنع أو يؤمن ، ومع ذلك فقد كان راضيا هادىء النفس •• ولكن الآن وهو فى هذا الهدوء والسكون ، عندما عادت أطراف الحديث الى ذاكرته شعر بالقلق والضيق ••

وأقبل خادمه يقطع السكون قائلا : هل لك فى شىء من الطعام ، يا أبى ؟

ــ لا بأس • ايتنى بشىء أتبلغ به •

ومضى الخادم الى كوخ أعد على مقربة من المغارة ، وأخلد الأب سرجيوس الى خلوته • لقد مضى الآن زمن طويل منذ أن كان يخدم نفسه بنفسه ، ولا يأكل سوى الخبز المخلوط أو

قربان الكنيسة. لقد نصحوه فى ذلك الزمان أنه لا يحق له أن يهمل صحته ، ومنذ ذلك الحين حرصوا على تقديم أفضل وأجود الأطعمة له ولو أنها من البقول . كان يتناول الطعام بقدر . ولو أنه أكثر من ذى قبل . وكثيراً ما كان يتلذذ بالطعام بعد أن كان يأكل نافرا لأن احساسه بالندم على خطاياه كان يفقده كل شهية لارضاء البطن ... لقد عاوده هذا الاحساس الآن. تناول بعض الحساء ، وشرب كوبا من الشاى وأكل نصف قربانة ... ومضى الخادم ثانية ، وظل الأب سرجيوس وحيدا تحت شجرة السرو .

كانت ليلة من ليالى شهر مايو البديعة ، التى تفتحت فيها الأزهار ، واكتست الأشجار بأوراقها الخضراء ... كانت شجيرات الكرز البرى خلف شجرة السرو فى أوج ازدهارها وعلى وشك ظهور الثمار ، وأخذت البلابل - وكان أحدها قريبا جدا منه وأثنان أو ثلاثة أخر فى الشجيرات بجوار النهر - أخذت تتناجى وتتناغم بأغانيها الشجية بعد عزف مبدئى بشقشقاتها البديعة . ومن عند النهر تواترت إلى أذنيه أغانى الفلاحين فى عودتهم من أعمالهم . مالت الشمس الى المغيب وراء الغابة ، وألقت أشعتها المتوهجة بين أوراق الأشجار . كان الجانب القريب منه يمتاز بخضرة لامعة ، بينما ران ظلام الظلال على الجانب الآخر من شجرة السرو . وحامت احدى الحشرات السوداء القارضة حوله ثم سقطت على الارض عندما اصطدمت بشىء ما .

وبعد العشاء ، بدأ الأب سرجوس يردد صلاة صامتة :



يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنا كعظيم رحمتك ٠٠ ثم بدأ يتلو أحد المزامير٠ وفجأة عندما وصل الى منتصف المزمور طار هدهد من الشجيرة ثم استقر على الأرض وأخذ يقفز قفزاته القصيرة متجها نحوه وهو يطلق شقشقته الجذلة ٠٠ ولكنه بعد حين باغته خوف مفاجىء ثم طار بعيدا ٠

وصلى الأب صلاة خاصة تتناول احتقار أباطيل العالم وتركه اياها ، وقد تلاها بشىء من التسرع حتى يرسل فى طلب التاجر مع ابنته العليلة ٠ لقد وجه عنايته الى هذا الموضوع ، لأنه كان يؤدى الى تشتيت ذهنه ، ولأن كلا من الفتاة وأبيها اعتبره قديسا ، صلاته لها مفعول أكيد ، ونتيجة مضمونة٠فى الظاهر كان يستهجن مثل هذه الفكرة ويقاومها، ولكنه فى أعماق روحه كان راضيا عنها ويعتبرها حقيقة صادقة ٠

كثيرا ما كان يرجع بالذاكرة الى حياته القديمة ، فيتعجب ان كل هذا قد حدث معه ٠٠ هو ٠٠ استيفان كازاتسكى ٠ يتحول عن حياته ليصير قديسا عجيبا ٠٠ بل وصانع آيات ومعجزات ٠٠ وصل الى هذه الدرجة العالية ٠٠ شىء عجيب حقا ، ولكن هذه هى الحقيقة ٠٠ لا مراء فيها ٠٠ لم يكن فى مقدوره الا أن يسلم بسلطانه فى عمل المعجزات التى كان يراها تحدث أمام عينيه ، من أول الصبى المريض حتى المرأة العجوز التى استردت بصرها عندما صلى لأجلها ٠

ومع غرابة هذه الأمور ، الا أن هذا هو الواقع ٠٠٠

وبالتالي فقد أثارت ابنة التاجر اهتمامه لأنها تؤمن به وبقدرته . ثم انها فرصة جديدة متاحة لاثبات قدرته على شفاء المرضى ، وذيوع شهرته .. « انهم يأتون بالمرضى من آلاف الفراسخ ، ويكتبون عن ذلك فى الصحف .. لا شك أن هذه الآيات قد بلغت مسامع الامبراطور .. بل ذاع أمرها فى أوربا ... أوربا القاسية الجاحدة للايمان » وعندما بلغت أفكاره هذا القدر ، خامره شعور بالخجل والخزى بسبب غروره ، فبدأ يصلى من جديد : يا رب .. أيها الملك السمائى ، المعزى ، روح الحق ، الحاضر فى كل مكان ، مالىء الكل ، كنز الصالحات ومعطى الحياة ، هلم تفضل وحل فى وطهرنى من كل شر . خلصنى وبارك حياتى وروحى . طهرنى من خطيئة الغرور والمجد الباطل ، الذى يقلق نفسى .. » وكرر هذه الصلاة ، وتذكر أنه كثيرا ما يتضرع من أجل هذه الطلبة .. ولكن حتى الآن دون فائدة ... صلواته تصنع المعجزات للآخرين ... ولكن بالنسبة لنفسه ، فان الله لم يحرره بعد من هذه العاطفة السخيفة .

تذكر صلواته فى بداية عهده بحياة الوحدة ، عندما كان يصلى ويطلب الطهارة والنقاء ، والاتضاع والمحبة .. وكان الله يستجيب هذه الصلوات ، ألم يحتفظ بطهارته ويقطع أصبعه ؟! لقد رفع ذلك الاصبع المقطوع من الأرض الى شفتيه وقبله ... الآن عندما يتذكر تلك الفترة من حياته يرى أنه كان وديعا متواضعا .. فقد كان يبغض نفسه ويحتقرها بسبب كثرة خطاياه وآثامه ... تلك المشاعر الرقيقة

والأحاسيس المرهفة التى قابل بها ذلك الرجل الأشيب وهو يقود أحد الجنود السكارى يطلب عمل المحبة والصدقة ... ذلك الحنان الذى ملأ قلبه وهو يستقبلهما .. لا شك أنه فى ذلك الحين كان قلبه يجيش بالمحبة . أما الآن ؟! وسأل نفسه ان كان يحس بالحب ازاء انسان ما ، هل يحب صوفيا ايفانوفا ، أو الأب سيرافيم ؟.. هل شعر بعاطفة الحب ازاء كل الذين أتوا اليه وقصدوه فى ذلك اليوم ؟.. هل أحب ذلك الشاب المثقف ، الذى اهتم بالحوار معه لا لشىء الا لكى يقارعه الحجة بالحجة ويثبت طول باعه فى المعرفة ، وعلو كعبه فى الذكاء ويؤكد أنه ليس متخلفا عنه فى ميدان الحكمة والمعرفة ... انه يطلب ويريد محبة الناس ويشعر بالحاجة اليها ، ولكنه لا يشعر بها أو يقدمها لأحد ... لقد بدت له حقيقة نفسه .. فلا هو اقتنى المحبة ، ولا ازدان بالاتضاع ، ولا نما فى حياة الطهارة ..!

ابنة التاجر فى الثانية والعشرين .. راقت له هذه الفكرة ، ولكن ألعلها جميلة الصورة ؟ عندما سأل أباها عما اذا كانت ضعيفة ، كان فى الواقع يريد أن يعرف عما اذا كانت تتمتع بجمال الأنوثة ...

« هل سقطت الى هذا المستوى ، وانحدر تفكيرى الى هذا الحد ... يا رب اعنى ، اللهم التفت الى معونتى ، يا رب أسرع وأعنى !..ردنى اليك يا ربى والهى » . ثم ضم قبضتيه وبدأ يصلى .

وانطلقت البلابل تصدح بالغناء ، وارتطمت به احدى الحشرات الطيارة وأخذت تمشى على قفاه فنفضها بعيدا عنه بيده ... « ولكن هل الله موجود حقا ؟ ماذا يكون الحال اذا كنت أقرع بابا موصدا من الخارج ؟ والقضيب مثبت على الباب لكى يراه الجميع ... الطبيعة ـ بما فيها من بلابل وحشرات ـ هى هـذا القضيب .. ربما كان ذلك الشاب المثقف على حق » .. ثم أخذ يردد صلواته بصوت مرتفع .

وظل على هذه الصورة ، يصلى ويصلى حتى تلاشت تلك الأفكار ، واسترد هدوءه وجدد ثقته ويقينه .. ثم دق الجرس وأخبر الخادم أن يعلن للتاجر أنه يستطيع أن يحضر ابنتـه اليه الآن .

وأقبل التاجر يقتاد ابنته بذراعها ... أدخلها الى القلاية وتركها سريعا . كانت الفتاة على قسـط وافر من الجمال ، ممتلئة الجسم ولكنها قصيرة جـدا تبدو على وجهها بسـاطة الطفولة تختلط بشيء من الوجل والشحوب ... من الواضح أنها ناضجة الأنوثة . ظل الأب سرجيوس جالسا على مقعده عند المدخل ، وعنـدما مرت به توقفت بالقرب منـه تطلب بركته ... وداهمه شعور غريب بالذعر .. بسبب الطريقة التى نظر بها الى قوامها . عندما جاوزته ، كان احساسـه بأنوثتها احساسا حادا ، مع أنه أدرك من ملامحها أنها ضعيفة العقل ، تميل الى الماديات والجسديات . نهض ودخل قلايته فوجدها جالسة على أحد المقاعد الصغيرة فى انتظاره .. وقد هبت واقفة عندما رأته يدخل .



طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء

وقالت : انى أريد أن أرجع الى بابا ٠

فأجاب : لا تخافى ٠٠ ماذا يؤلمك ؟ ومم تشكين ؟

ـ ان الألم يملأ كل كيانى ٠٠ وعندما قالت هذا أضاء وجهها فجأة بابتسامة ٠

ـ سوف تخف آلامك ، وتستعيدى صحتك ٠٠ صلى ٠

ـ وما فائدة الصلاة؟٠٠لقد صليت كثيرا بدون أى فائدة٠

وظلت الابتسامة ترتسم على شفتيها وهى تستأنف حديثها: أنى أريدك أنت أن تصلى لأجلى ، وتضع يديك على ٠ لقد رأيتك فى حلم ٠٠٠

ـ وكيف رأيتنى ؟

ـ رأيتك تضع يديك على صدرى هكذا ٠

وأخذت يده وضمتها الى صدرها بقوة ، وهى تقول : هنا ٠٠٠ هنا بالضبط ٠

وترك يده اليمنى لها وعاد يسأل : ما اسمك ؟ وأحس برعدة قوية تسرى فى أوصاله ، وأيقن فى قرارة نفسه بالهزيمة وشعر أن نوازع الجسد تلتهب فى كيانه ، وأنها فاقت كل حدود الضبط والقمع ٠

ـ مارى ٠٠٠ لماذا ؟

وأخذت يده وقبلتها ، ومدت ذراعها حول وسطه ، والتصقت به ٠

ـ ماذا تفعلين ؟ ٠٠٠ مارى ٠٠ انك شيطان ٠

ـ ربما ٠٠ وما أهمية ذلك ؟

وجذبته اليها ثم جلست معه على الفراش ٠

* * *

عند الفجر ، مضى الى المدخل الصغير المظلم ٠٠ « هل يمكن أن يحدث كل هذا ؟ سوف يأتى أبوها ، وتخبره بكل شىء ٠٠ انها شيطان ٠٠ ماذا ينبغى أن أصنع ؟ ها هو الفأس الذى قطعت به أصبعى » ٠ وأمسك بالفأس وقفل راجعا الى مغارته

جـاء خادمه فقال : ألعلك يـا أبى فى حاجة الى بعض الأخشاب ٠٠ اعطنى الفأس يا أبى ، وسأقوم أنا بذلك ٠

وسلم سرجيوس الفأس ، ثم دخل المغارة ٠٠٠ كانت هناك راقـدة تغط فى نوم عميق ٠٠ ونظر اليهـا فى فزع ، وخرج من الباب وأخذ ملابس الفـلاح وارتداها ٠ ثم أمسك بالمقص وجز شعره الطويل ، وعبر الممر بسرعة وانحدر فى الطريق الجبلى المؤدى الى النهر ٠٠٠ لقد مضت ثلاث سنوات منذ أن كان هناك فى آخر مرة ٠

كان الطريق يمتـد بجوار النهر ، وواصل المسـير حتى منتصف النهار ٠٠ ثم دخل أحد الحقول ورقد هناك بين أعواد النبات ٠٠ وعند مغيب الشمس وصل الى احدى القرى ولكنه لم يدخل فيها بل اتجه قدما الى الصـخرة المعلقة التى كانت تطل على النهر ٠ وهناك رقد ثانية ٠٠ أراد أن يلتقط أنفاسه ويستريح ٠

وفى الصباح الباكر ، قبل مطلع الشمس بحوالى نصف ساعة ·· كان الجو رطبا قاتما ، وكان الهواء يلفح وجهه من الغرب · « نعم ·· لابد أن أنتهى من كل شىء · ليس هناك اله ·· ولكن كيف ينبغى أن أضع حدا لحياتى ؟ ألقى بنفسى فى النهر ؟ أعرف السباحة ·· ولا أغرق ·· أشنق نفسى ؟ نعم ·· يكفى أن أعلق هذا الحبل فى فرع شجرة ·· » بدأ له هذا الحل عمليا جداً ، ومن السهولة بمكان ··· لكن داخله شعور قوى بالرعب والرهبة · وكما جرت عادته فى لحظات اليأس والقنوط ، شعر بالحاجة الى الصلاة ··· ولمن يقدم الصلاة ؟ لا يوجد اله ·· ظل راقداً وهو يستند على ذراعه · وأخذت تتسلل الى نفسه رغبة فى النوم لم يستطيع أن يقاومها ، ولم تعد لديه القدرة أن يحتفظ برأسه معتمدا على يده ، فمد ذراعه وأراح رأسه واستسلم للنعاس · ولكن هذا النعاس لم يدم طويلا ، فاستيقظ متعبا وبدأ يفكر من جديد ، ويستعيد كل ما حدث فى خياله ·

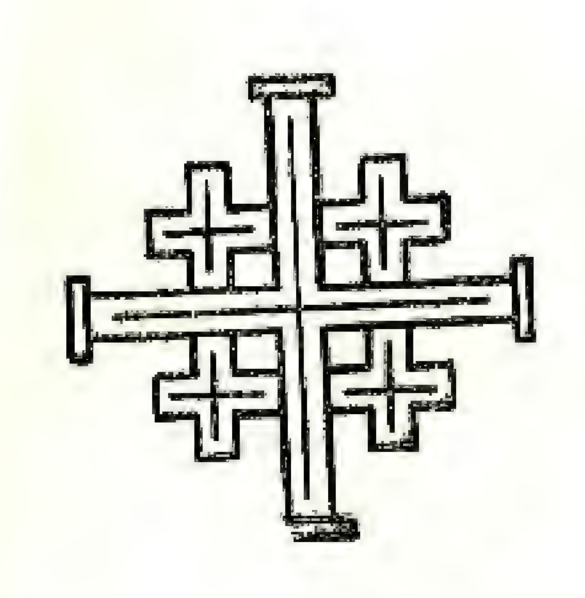
رجع بخياله الى أيام طفولته فى بيت أمه فى الريف ·· ها هى احدى العربات تصل عند الباب ، ويترجل منها العم نيقولاس سيرجيفيتش بلحيته السوداء الطويلة التى تشبه الجاروف ، وتنزل معه باشنكا الصغيرة ، بقوامها النحيل ، وعينيها الواسعتين الرقيقتين ووجهها العطوف الخجول · وكان يجب عليه مع بقية الأولاد أن يلعبوا معها ، وكان هذا بغيضا الى نفسه ، فهى سخيفة · وكان ينتهى بهم الأمر الى السخرية منها ، ويرغمونها على السباحة حتى يقيسوا

مقدرتها على ذلك ، فكانت ترقد على الأرض وتريهم طريقة السباحة فيضحك عليها الجميع ، ويهزأوا بحماقتها • وعندما كانت تتبين خبث حديثهم ، كان يحمر وجهها خجلا ، وترتبك مما يجعلها جديرة بالرثاء أكثر من ذى قبل ••• مستسلمة مسكينة جدا حتى كان يشعر بالخجل •• انه لا يستطيع أن ينسى ابتسامتها الوديعة المغتصبة •• وتذكر سرجيوس أنه رآها بعد ذلك • بعد أيام الطفولة بزمن طويل ، وقبل أن ينضم فى سلك الرهبنه ، تزوجت من أحد الملاك •• وللأسف بدد كل ثروتها ، وكثيرا ما كان يعتدى عليها بالضرب ! ثم أنجبت طفلين ، ولد وبنت ولكن الصبى مات وهو ما زال حدثا يافعا ••• لقد رآها سرجيوس فى منتهى التعاسة والبؤس • ثم رآها مرة أخرى فى الدير وهى أرملة •• كانت على عهده بها ، ليست غبية بالضبط ، ولكنها سلبية تافهة •• مسكينة • لقد أتت فى صحبة ابنتها وخطيبها •• كانوا فقراء ، وآثار الفقر بادية عليهم جميعا • لقد سمع بعد ذلك أنها تعيش فى احدى مدن الأقاليم فى فقر مدقع •

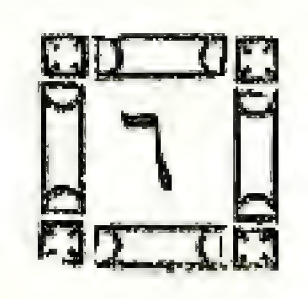
ثم عاد يسائل نفسه « ما الذى جعلنى أفكر فيها ؟ » ومع ذلك لم يستطيع أن يكف عن التفكير فيها » • أين هى يا ترى ؟ وكيف تعيش ؟ هل ما زالت بائسة شقية كما كانت عندما كانت ترينا كيف تكون السباحة على الأرض ؟ ولكن لماذا أفكر فيها على هذا النحو ؟ ما هذا الذى أفعله ؟ لابد أن أضع حدا لحياتى » •

وبدأ الخوف يتجمع من جديد فى قلبه ... ولكى يهرب من هذه المخاوف ، استرسل فى خواطره حول باشنكا .. لقد تجلت فى خواطره كوسيلة من وسائل الخلاص . وفى النهاية راح فى نوم عميق . وفى منامه رأى ملاكا يقبل اليه ويقول : اذهب الى باشنكا ، وهناك تتعلم منها ما ينبغى أن تصنعه ، وتعرف ما هى خطيتك ، وكيف يمكن أن يكون خلاص نفسك !

وعندما استيقظ ، أيقن أن هذه الرؤيا من قبل الله ، وامتلأت نفسه بمشاعر الفرح ، وقرر أن ينفذ ما قيل له فى هذه الرؤيا . كان يعرف المدينة التى تعيش باشنكا فيها . كانت تبعد حوالى ثلاثمائة فرسخ . وبدأ المسير .







لم تعد باشنكا كما كانت من قبل • صارت امرأة عجوز، نحيلة الجسم امتلأ وجهها بالخطوط والتجاعيد تعرف باسم براسكوفيا ميخائيلوفنا (١) ، حماة ذلك الموظف الفاشل السكير مافريكيف • كانت تسكن فى المدينة التى كان يشغل فيها آخر وظيفة ، وكانت هى التى تعول الأسرة : ابنتها وزوجها العصبى المتعب وأطفالهما الخمسة • كانت تعول هذه الاسرة بالعمل فى تدريس الموسيقى لبنات الصناع • كانت أحيانا تعطى أربعة أو خمسة دروس فى اليوم الواحد ، وكل درس يستغرق ساعة كاملة ، فكانت تتقاضى فى مقابل هذا العمل المرهق ٦٠ روبلا أى ستة جنيهات فى الشهر • وهكذا كانوا يرتزقون على أمل وظيفة جديدة • أرسلت خطابات الى جميع الأقارب والمعارف تطلب معونتهم فى تعيين زوج ابنتها • وكان الأب سرجيوس أحد الذين ناشدتهم المعونة ولكن خطابها لم يصل اليه •

فى يوم السبت كانت براسكوفيا ميخائيلوفنا تمزج الخميرة لتعد الكعك ، كما كانت تفعل الخادمة فى ضيعة

---

(١) هذا الاسم كان النداء الشائع الذى تنادى به الفتيات الصغيرات ومعناه « ابنة ميخائيل » اشارة الى رعاية وشفاعة الملاك ميخائيل •

أبيها ، وكانت تجيد عمل الكعك • كانت براسكوفيا تريد أن تعطى حفدتها الخمسة لونا ممتازا من الطعام يوم الأحد •

وكانت ماشــا ابنتها ترضع طفلها الصغير • كان أكبر أولادها وأكبر بناتها في المدرسة • وكان زوج ابنتها يغط فى النوم ، لأنه لم يذق طعم النوم طوال الليل • وقد ظلت براسكوفيا ميخائيلوفنا يقظة قسطا طويلا من الليل ، وهى تحاول أن تلطف من حدة ابنتها وغضبها على زوجها • لقد أدركت يقينا أن صهرها ، هذا الرجل الضعيف ، لا يمكن أن يكون الا هكذا • كما أيقنت أن تقريع زوجته له لن يأتى بثمر البتة • لهذا بذلت كل ما فى طاقتهــا حتى تهــدىء من عنف توبيخها حتى تتجنب تبادل الشــتائم وانفعالات الغضب • كانت المعامــلات الفظة القاســـية هى السبب فيما كانت تعانيه جسديا • وقد اتضح لها أن مرارة النفس والمشاعر العنيفة لا يمكن أن تؤدى الى أفضل « غضب الانسان لا يصــنع بر الله » بل على العــكس من ذلك كانت تؤدى الى الأسوأ والى تدهور المواقف • بطبيعة الحال لم تفكر على هذه الصورة ، ولكنها كانت تتألم وتتبرم من رؤية الغضب كما تتقزز من رائحة كريهة أو ضوضاء صاخبة أو من الضربات التى كانت تحل عليها •

كان يجيش بنفسها شعور بالقناعة والرضا وهى تدرب لوكيريا الصغيرة كيف تخلط الخميرة ، عندما دخل حفيدها ميشا ، الذى كان يبلغ من العمر ست سنوات ، وقد ارتدى مريلته ، وجوربه الذى خيطت خروقه الكثيرة ولكنه على أى

حال يغطى رجليه المقوستين ، دخل يهرول فى المطبخ ، وعلى وجهه علامات الذعر ، وهو يصيح ٠

ـ جدتى ٠٠ جدتى ٠٠ رجل مخيف يريد أن يراك ٠

ومدت بصرها نحو الباب ، ثم قالت : انه أحد السياح من نوع ما ، رجل ٠٠٠

ودعكت براسكوفيا ميخائيلوفنا كوعيها بعضهما ببعض، ومسحت فوطتها فى مريلتها ، وصعدت الى حجرتها لكى تأتى بقطعة مالية من فئة ٥ كوبيك (٥ مليمات تقريبا) من كيس نقودها من أجل هذا السائل ٠ وعندما تذكرت أن أقل قطعة مالية فى الكيس هى عشرة كوبيك ، قررت أن تعطيه خبزا بدلا من النقود ٠ وعادت الى الدولاب ، الا أنها شعرت فجأة بالخجل لأنها ضنت بقطعة مالية صغيرة ذات العشرة كوبيك فنادت على لوكيريا لكى تقطع شريحة من الخبز ، بينما صعدت ثانية لكى تحضر القطعة المالية الصغيرة ، وهى تردد فى نفسها « تستحقين ما حدث لك ٠ هوذا يجب الآن أن تدفعى الضعف » ٠

ثم أعطت النقود والخبز للسائح وهى تعتذر عن هذا القليل الذى تقدمه ٠ ولم يخطر فى ذهنها شىء عن قيمة عطائها أو سخائها ٠ وشد انتباهها مظهر الرجل وهيئته ومع أنه سار على قدميه مائتى فرسخ كسائل مسكين ، ورغم أسماله البالية ونحول بدنه ، وبشرته السمراء التى ضربتها الشمس ، ومع أنه قص شعره الطويل ووضع قلنسوة الفلاح ليغطى بها رأسه ، وفى رجليه ذلك الحذاء الطويل الذى

يلبسه الفلاحون ، ورغم أنه كان ينحنى فى مذلة ، الا أن سرجيوس كان يتمتع بتلك الطلعة الآسرة النفاذة التى كانت سر جاذبيتـــه · ولكن براســـكوفيا ميخائيلوفنا لم تتبين شخصيته لأنها لم تره منذ ما يقرب من العشرين سنة ·

ـ لا تسىء بى الظن يا أبى ، فلعلك فى حاجة الى شىء من الطعام ؟

وتناول منها الخبز والنقود ، ولكن الذى أثار دهشـــة براسكوفيا ميخائيلوفنا أنه لم يمض الى حال سبيله بل ظل يرمقها بنظرة طويلة ·· ثم قال :

ـ باشـــنكا ··· لقد جئت لاجئا اليك ·· اسمحى لى بالدخول ···

كان يقول هذه الكلمات ، وقد لمعت الدموع فى عينيه السوداوين الجميلتين ، وتكاد نظراته تنطق بالتوسل والمذلة والالحاح · وتحت شاربه الأشيب ارتعشت شفتاه ·

ضمت براسكوفيا ميخائيلوفنا يداها الى صدرها الجاف ، وفغرت فاها · تسمرت قدماها وحملقت فى وجه الســائح الفقير ، ثم صاحت :

ـ مســـتحيل ! ··· ســـتيفا ! ·· سيرجى ! أبونا سرجيوس !

وأجابها فى صوت منخفض : نعم هو بعينه ·· فقط ليس سرجيوس أو الأب سرجيوس ولكن أعظم الخطاة ـ ستيفان كازاتسكى ـ خاطىء ·· هالك ·· اقبلينى عندك ولا تمنعى عنى معونتك ·

ـ ولكن مستحيل ! •• كيف وصلت الى هذه المذله ؟ ••
ولكن تعال •• ادخل •

ومدت يدها اليه ، ولكنه لم يأخذها بل سار فى أثرها فقط • ولكن الى أين تأخذه ؟

فالبيت صغير •• كان عندها فيما مضى حجرة صغيرة خصصتها لنفسها للصلاة ، ولكنها اضطرت أن تتخلى عنها لابنتها ، وماشا تجلس فيها الآن تهدهد طفلها •

وأشارت الى مقعد فى المطبخ وهى تقول : اجلس هنا الآن •

وجلس فى الحال ، وبحركة لا اراديه أخذ ينزع حزام الجراب من على كتفه ثم من على الآخر •

ـ يا الهى •• يا للسماء •• كيف وصلت الى هذه المهانة
يا أبى !! هذه الشهرة التى طبقت الأفاق ، والآن
على هذه الصورة •••

ولم يحر سرجيوس جوابا ، واكتفى بابتسامة وادعة ، وهو يضع الجراب تحت المقعد •

ـ ماشـــا •• يا ابنتى هل تعرفين من هذا ؟ وقالت
براســـكوفيا ميخائيلوفنا على ابنتهـا وهمست ••
واسرعت المرأتان تنظفان الحجرة الصغيرة ، فأخرجتا
فراش الطفل والأم ، وأعادتا ترتيب الحجرة وأعدتاها
لسرجيوس وأدخلته براسـكوفيا وهى تقول : هنا
يمكنك أن تستريح •• أرجو ألا تتضـايق ، ولكنى
يجب أن أخرج •

ـ الى أين ؟
ـ عندى درس . شىء مخجل أن أقول لك ذلك ، ولكنى أعطى دروسا فى الموسيقى .
ـ موسيقى ؟ هذا عمل طيب . ولكنى أريد أن أقول لك شيئا يا براسكوفيا ميخائيلوفنا . لقد جئت اليك ونصب عينى هدف خاص . متى يمكننى أن أتحدث اليك ؟
ـ هذا يسرنى جدا . هل يناسبك اليوم مساء ؟
ـ نعم .. ولكن هناك شىء آخر .. أرجو ألا تتكلمى عنى أو تفصحى عن شخصيتى . لقد كشفت عن حقيقتى لك أنت وحدك . ولا يعلم أحد أين ذهبت .. ولا يجب أن يعرف .. أيضا .
ـ ولكنى قلت لابنتى .
ـ حسنا يمكنك أن توصيها ألا تخبر أحدا .

ثم خلع سرجيوس حذاءه الطويل ، وتمدد على الفراش وسرعان ما راح فى نوم عميق ، بعد ليلة مضنية لم يعرف فيها النوم ، وبعد عناء طويل اذ قطع على قدميه ما يقرب من الثلاثين ميلا .

عندما عادت براسكوفيا ميخائيلوفنا ، كان سرجيوس فى انتظارها قابعا فى الحجرة الصغيرة . ثم يخرج لتتناول العشاء ولكن لوكيريا أحضرت اليه بعض الحساء وشوربة الخضار فتناولهما .

وسأل سرجيوس : ولكنك أتيت قبل موعدك .. هل هل يمكننى الحديث اليك الآن !

ـ لا يتصور أحد سعادتى باستقبال مثل هذا الضيف .. بقى درس واحد لم أعطه •• يمكنه أن ينتظر •• طالما فكرت في السفر لكى أراك • وقد كتبت اليك •• وها هو الحظ السعيد يأتى ليطرق بابى •

ـ باشنكا •• أرجو أن تنصتى جيدا لما سأقوله كأنه اعتراف أقدمه أمـام الله فى ساعتى الأخيرة •

ـ باشنكا ••• أنا لست قديسا كمـا تتصورين ، بل ولست أفضل أى انســان عادى •• صدقينى انى انسان خاطىء مغرور ، نجس كريه ، دنىء انحرف عن الصواب وابتعد عن سبل الرب المستقيمة وصار أضل الناس بل أشر من أعتى الخطاة ••

ونظرت اليه باشنكا فى بادىء الأمر وحملقت عيناها ، ولكنها صدقت أقواله ، وعندما استوعبت معانيها لمست يده فى رفق وابتسمت قائلة : لعلك تبالغ يا استيفا ••

ـ لا •• يا باشنكا انى رجل زان ، قاتل •• مجدف •• ومخادع •

وصاحت براسكوفيا فى عجب : يا الهى •• كيف يمكن أن يكون ذلك ؟

ـ ولكن يجب أن أواصل الحياة •• أنا ، الذى كنت أظن أنى أعرف كل شيء ، كنت أرشد الآخرين فى طرق الحياة •• أعترف بأنى لا أعرف شيئا ، وأرجوك أن تعلمينى وترشدينى •

ـ ما هذا الذى تقوله يا ستيفا ؟ ألعلك تضحك على ؟ لماذا تسخر منى على الدوام ؟

ـ حسنا ، اذا كنت تظنين انى أمزح فليكن لك ما تشائين .. ولكن ـ رغم ذلك ـ قولى لى كيف تعيشين ، وكيف رتبت أمور حياتك ؟

ـ أنا ؟ كل حياتى شقية ورديئة ، وها هو الله يعاقبنى كما استحق .. حياتى تعيسة وبائسة ..

ـ كيف كان زواجك ؟ .. وكيف عشت مع زوجك ؟

ـ كله بؤس وشقاء . لقد تزوجت لأنى ترديت فى حب آثم . ولم يوافق أبى على هذا الزواج . ولكنى أصررت ورفضت أن أستمع لأية مشورة .. وتزوجت . بدلا من أن أكون معينة لزوجى ، نغصت حياته بغيرتى التى لم أستطع كبح جماحها .

ـ سمعت أنه كان يشرب ...

ـ صحيح .. ولكنى لم أسمح له بالسلام اطلاقا . كنت لا أكف عن توبيخه وتقريعه .. مع أن هذه الحالة ـ كما تعرف ـ انما هى مرض ! لم يستطع الاقلاع عن الخمر .. وانى لا أذكر كيف كنت أحاول أن أمنعه منها .. كانت مواقف مخيفة !

ثم رفعت عينيها الجميلتين الى كازاتسكى وقد بدا فيهما الأحساس بالألم الدفين الذى أثارته هذه الذكريات ، وتذكر كازاتسكى ما قيل له عن زوجها الذى كان ينهال عليها ضربا .. والآن .. يرى رقبتها النحيلة ، وعروقها البارزة خلف أذنيها ، وضفائر شعرها الهزيل وقد وخطها المشيب .. أخذ خياله يرسم له صور تلك الأحداث التى كانت تجرى بينها وبين زوجها .

- ثم تركني ومعي طفلين . وليس لنا أي مورد للرزق .
- ولكن كنت تمتلكين ضيعة ...
- أوه .. لقد بعناها بينما كان فازيا ما زال على قيد الحياة ، ولم يبق من ثمنها فلسا واحدا . كان لابد لنا أن نعيش ، ولكني لم أكن أعرف كيف أكسب قوتي .. هكذا كان حال جميع الشابات .. وأنا - خصوصا - كنت عاجزة تماما وبلا أي منفعة . وهكذا أتينا على كل ما عندنا من مال أو عتاد . أخذت أعلم أطفالي بنفسي كما حاولت أن أرتقي بمستواي قليلا . ثم سقط ميشميا طريح الفراش وهو في سنته الدراسية الرابعة وانتقل الى رحمة الله . وأحبت ماشا صهري فانيا .. و .. حسنا .. نيته طيبة ولكنه سيء الحظ .. انه مريض .

وقاطعها صوت ابنتها يناديها : ماما ! خذي ميشميا ! لا أستطيع أن أكون في مكانين في وقت واحد .

وسرت رعدة في أوصال براسكوفيا ولكنها نهضت وخرجت متعثرة في حذائها المرقع . وسرعان ما عادت وهي تحمل في ذراعيها طفلا في الثانية من عمره ، كان يلقي بنفسه الى الخلف ويتشبث بالشال الذي تتدثر به بكلتا يديه .

- أين وصلت ؟ آه ، صحيح . لقد حصل على وظيفة طيبة هنا ، وكان يرأسه رجل طيب أيضا . ولكن فانيا لم يستطع أن يواصل العمل ، فترك وظيفته .
- لماذا ؟ ما خطبه ؟

ـ مصاب بمرض خطير ٠٠ نورستانيا ٠٠ لقد استشرنا الطبيب فأشار عليه بالسفر ، ولكن ليس عندنا ما ننفقه ٠٠ انى أرجو دائما أن يزول المرض من تلقاء نفسه ٠٠ انه لا يشكو من ألم معين ، ولكن ٠٠٠

وارتفع صوت غاضب يقول : لوكيريا ٠٠ دائما تذهب عندما أكون فى حاجة اليها ٠٠ ماما ٠٠ وقطعت براسكوفيا ميخائيلوفنا حديثها وهى تجيب : ها أنذا آتية ٠٠ انه لم يتناول عشاءه بعد ٠٠٠ ولا يمكن أن يأكل معنا ٠

ثم خرجت وأعدت شيئا ما ثم رجعت وهى تمسح يديها النحيلتين السمراويتين ٠

ـ هذه هى حياتى ٠٠ شكوى مستمره ٠٠ ولا قناعة ٠ ولكن الحمد لله أن أحفادى طيبون ويتمتعون بصحة جيدة ، ويمكننا أن نواصل حياتنا على أى حال ٠٠ ولكن لماذا يدور الحديث حولى ؟

ـ وكيف تعيشين ؟ ما هو مورد رزقك ؟

ـ حسنا ٠٠ أنا أكسب القليل ٠٠ لا تتصور كم كنت أكره الموسيقى ، ولكن ما أنفعها لى الآن ٠٠ كانت يدها الصغيرة على الدولاب المجاور لها ، وأخذت تنقر بأصابعها أحد الأنغام ٠

ـ كم تأخذين أجرا للدرس الواحد ؟

ـ أحيانا روبلا واحدا ، وأحيانا خمسين كوبك ٠٠ أو ثلاثين ٠٠ كلهم شخصيات رقيقة ٠

وعاد كازاتسكى يسأل وعلى شفتيه ابتسامة : وهل يتقدم تلاميذك فى دروسهم ؟

ولم تعتقد بارسكوفيا ميخائيلوفنا لأول وهلة أنه يسأل جادا ، ونظرت اليه فى تساؤل :

ـ بعضهم متقدم فعلا ٠٠ أحدهم فتاة رائعة ـ ابنة الجزار ـ فتاة رقيقة جدا ! لو كنت على شىء من الذكاء ، كان ينبغى على طبعا ، بما تهيئه لى العلاقة مع أبيها أن أجد وظيفة لصهرى ٠ ولكن ـ كما ترى ـ لم أستطع أن أعمل شيئا ٠

ثم غض كازاتسكى من بصره وهو يقول : نعم ٠٠ نعم ولكن ما دورك فى الحياة الكنسية ؟

ـ لا تقل شيئا فى هذا الموضوع ٠ فى هذه الناحية أنا خاطئة للغاية ، فقد أهملت هذه الحياة ! ! صحيح انى حريصة على الصوم مع الأطفال ، وأحيانا نذهب الى الكنيسة وقد تنقضى أشهر طويلة دون أن أدخل الكنيسة ٠٠ كل ما أعمله أنى أحث الأطفال على الذهاب الى هناك ٠

ـ لماذا لا تواظبين على الكنيسة ؟

ـ أقول لك الحق ـ ثم أحمر وجهها خجلا ـ أشعر بالخجل من نفسى من أجل ابنتى ومن أجل الأطفال ٠٠ كيف أذهب فى ملابسى المهلهلة ؟! لا أملك شيئا آخر ٠ بالاضافة الى ذلك فأنا مهملة كسولة ٠

ـ وهل تصلى فى البيت ؟

ـ نعم ، أفعل ٠ ولكن أى نوع من الصلاة ؟ صلاة آلية أعرف أنه لا يجب أن تكون كذلك ، ولكن يعوزنى الشعور

الدينى . الشىء الوحيد الذى أعرفه ان شرى واثمى كثير جدا ...

وأومأ كازاتسكى برأسه قائلا : .. هذا صحيح !.. هذا صحيح !

ولكنها صاحت تجيب على نداء صهرها : هاأنذا آتية.. ثم غادرت الحجرة وهى ترتب ضفائر شعرها . فى هذه المرة تأخرت قليلا ، وعندما رجعت كان كازاتسكى جالسا فى نفس الوضع الذى كان عليه ، وقد أسند مرفقيه على ركبتيه وطأطأ رأسه . ولكنه كان قد ثبت جرابه على ظهره . عادت تحمل مصباحا صغيرا من الصفيح ، دون غطاء يظلله ، فلما دخلت رفع اليها عينيه المرهقتين الجميلتين ، ثم تنهد بعمق. وبدأت تستأنف حديثها فى شىء من الحياء : لم أقل لهم من أنت.. كل ما قلته أنك أحد السياح .. رجل نبيل كنت أعرفه من قبل.. تعال نشرب الشاى معا فى حجرة الطعام.

ــ لا ..

ــ اذا ، لابد أن أحضر لك نصيبك من الشاى .

ــ لا .. لا أريد شيئا . الرب يباركك يا باشنكا !. سأمضى فى طريقى الآن . اذا أردت أن تصنعى معى رحمة، فلا تقولى لأحد أنك قابلتنى . من أجل محبة الله لا تخبرى أحدا . أشكرك .. مستعد أن أسجد عند قدميك ، ولكنى أعلم أن هذا سيضايقك.. أشكرك ثانية وأرجو أن تغفرى لى من أجل المسيح .

ــ باركنى .. يا أبى ..

ـ الله يباركك •• اغفرى لى من أجل المسيح !

ثم نهض واستعد للخروج ، ولكنها أبت أن تدعه يذهب حتى يأخذ من يدها ما أحضرته من خبز وزبد وبعض الكعك •

كان الظلام قد أرخى سدوله ، ولم يكد يجتاز البيت الثانى حتى اختفى فى طيات الليل • لقد أدركت وجـوده لأن الكلب فى بيت القسيس كان ينبح عند رؤيته •

« اذا فهذا هو معنى الحلم •• باشنكا هى النموذج الذى كان ينبغى أن أكونه ولكنى فشلت • لقد عشت من أجـل الناس بينما كنت أقول أنى أقدم حياتى ذبيحة لله بينما هى عاشت لله وهى تظن أنها تعمل من أجل الناس •• نعم ، عمل صالح واحـد ـ كأس ماء بارد دون انتظار الجزاء ـ أفضل من أى فائدة كنت أظن أنى أمنحها للناس • ومع ذلك ، ألم يكن هناك شىء من رغبة أمينة صادقة لخدمة الله؟» وبعد أن سأل نفسه هذا السؤال ، جاءه الجواب « نعم كان هناك •• ولكن الرغبة الصادقة أفسدتها وطغت عليها رغبة فى مديح الناس أو السبح الباطل • حقا ، الله غير موجود بالنسبة للرجل الذى يعيش كما عشت ساعيا لمديح الناس• لا حاجة للبحث عن الله ! »

ومضى فى طريقه من قرية الى أخرى ، كما فعل فى رحلته الى باشنكا ، يقابل ثم يفارق غـيره من السياح ، رجـالا ونساء ، يطلب الخبز ويلتمس قضاء الليل باسم المسيح • من حين الى آخر كان يستمع الى التوبيخ من زوجة غاضبة ، أو تنهال عليه الشتائم من فلاح سكران • ولكن فى معظم

الأحوال كان يحصل على حاجته من الطعام والشراب وفى بعض الأحيان زادا للطريق • كان مظهره النبيل يجتذب الكثيرين اليه ، بينما البعض الآخر يستهويه منظر الرجل النبيل الذى انحدر الى هذا الفقر والبؤس • ولكن أسلوبه الرقيق كان يستهوى قلوب الجميع • وكلما وجد نسخة من الانجيل فى أكواخ الفقراء ، كان يقرأه بصوت مرتفع • كانت نبراته تلمس قلوب السامعين فيتعجبون كأنهم يسمعون شيئا جديدا ، وان كان مألوفا •

عندما كان ينجح فى خدمة من الخدمات سواء بالارشاد أو بمعرفته للقراءة والكتابة أو اذا فض خلافا أو مشاجرة ما كان ينتظر حتى يستمع الى شكرهم بل كان يمضى مباشرة بعد ذلك •• وبالتدريج بدأ الله يظهر نفسه فيه •

فى احدى المرات كان يمشى بجوار اثنتين من العجائز وأحد الجنود ، فاستوقفهم موكب يتكون من رجل وامرأة فى عربة ، ورجل آخر وامرأة أخرى على صهوتى جواديهما • كان الزوج ممتطيا حصانه مع ابنته بينما كانت زوجته فى العربة مع مسافر فرنسى •

وقد توقف الركب حتى تسنح الفرصة للرحالة الفرنسى حتى يشاهد السياح ، الذين ــ كما تصورهم الأساطير الروسية ــ يتنقلون من مكان الى آخر بدلا من العمل •

كان الحديث يدور بينهم بالفرنسية حتى لا يفهمهم الآخرون • وقال الرحالة الفرنسى :

ـ أسألوهم عما اذاكانوا على ثقة. ويقين من أن سياحتهم مقبولة لدى الله .

ولما سئل السؤال أجابت احدى العجوزتين : كما يرى الله وحسب ارادته .. ان أقدامنا بلغت الأماكن المقدسة ، ولكن قلوبنا ربما لم تصل بعد ...

ولما سئل الجندى أجاب بأنه وحيد فى هذا العالم ، وليس له مكان آخر يذهب اليه .

ثم سألوا كازاتسكى من يكون .

ـ خادم الله .

ـ ماذا يقول ؟ انه لم يعط جوابا .

ـ انه يقول أنه خادم الله .. ربما كان هذا من سلالة أحد الكهنة . يبدو أنه ليس انسانا عاديا .. عندك فكة ؟

ونقب الفرنسى فى جيوبه ، فوجد بعض انفكة الصغيرة ونقد كلا من السياح عشرين كوبك .

ـ ولكن أرجو أن تخبرهم انى لا أعطيهم هذا المال لكى ينفقوه على شموع الكنيسة .. بل لهم أن يصيبوا شيئا من الشاى .. شاى ، شاى لك أيها الرفيق العجوز .

قال هذا وهو يبتسم ، ويربت على كتف كازاتسكى بيده وهى فى القفاز .

وأجاب كازاتسكى : المسيح يباركك .. وانحنى برأسه الأصلع دون أن يلبس قلنسوته .. لقد سر من هذا اللقاء

لا لشيء الا لأنه أغضى عن رأى الناس، وأنه لم يقم الا بأبسط الأعمال وأيسرها .. وأنه قبل فى خشوع عشرين كوبك أعطاها بدوره الى رفيقه الشحاذ الأعمى ... كلما أهمل رأى الناس فيه ، كلما ازداد احساسا بوجود الله داخله .

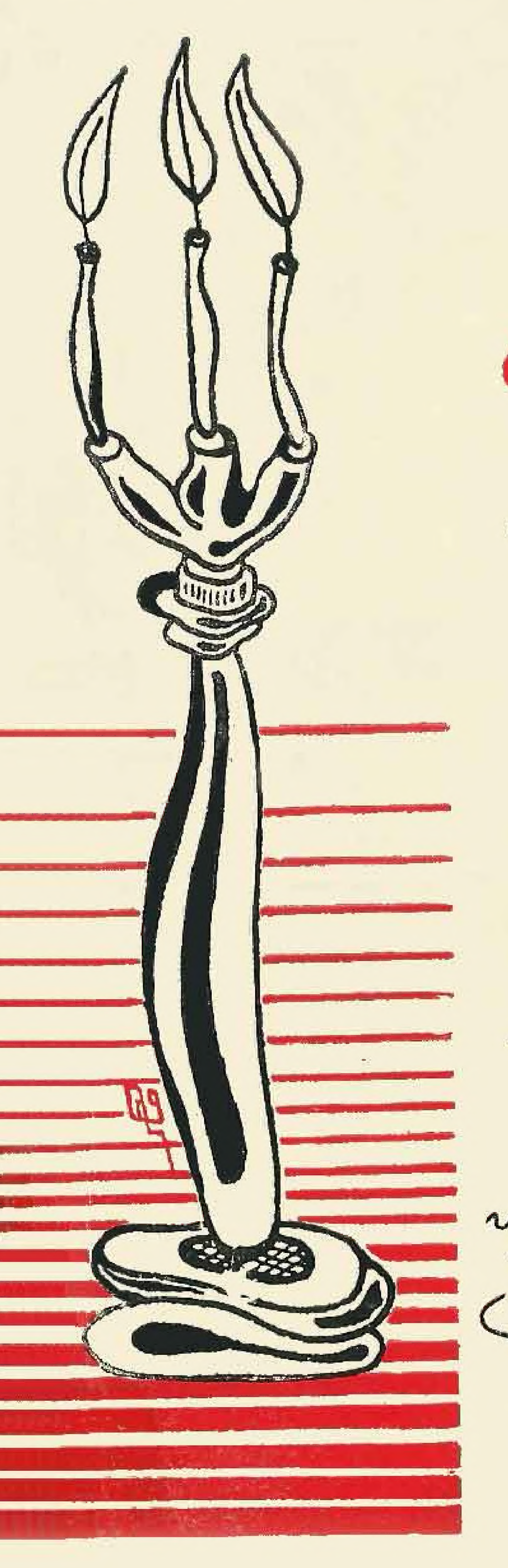
وسار كازاتسكى على هذا المنوال ثمانية أشهر ، يجوب البلاد ويتنقل من مكان الى آخر . وفى الشهر التاسع ألقى القبض عليه لأنه لم يكن معه جواز سفر . حدث له هذا عندما لجأ الى مأوى فى احدى الأقاليم ليلا حيث قضى الليل مع بعض السياح . أخذوه الى مخفر البوليس حيث استفسروا عن اسمه وعن جواز سفره فأجاب بأنه ليس لديه جواز سفر ، وأنه عبد من عبيد الله . وقيدوا اسمه فى قائمة المتشردين ، وصدر ضده الحكم ، وأرسل لكى يقضى بقية حياته فى سيبريا .

وفى سيبريا أقام لدى أحد الفلاحين ، على درجة من الثراء ، وقد عهد اليه بالعمل فى بستان الخضروات ، وتعليم الأطفال ، والعناية بالمرضى .



رقم الايداع بدار الكتب ٧٣/٢٥٩٨

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ـــ ت ٩٠٦٧٠٦ ـــ القاهرة



الناسك

+ مرآة صادقة .. تعكس
صورة الإنسان الباطن
إنساناً تحت الآلام
يحيط به الضعف
ولا يعلم !

+ نور يهدي السائرين
في دروب الرب
حتى لا تغفل عيونهم الباطنية
عن أخطار الطريق

موريس وهبه حنينا